هِداءِ الجالي

رواية

سلك شائك

obeikan.com

الكتـــــــاب: **سلك شائك**

المــؤلــــف: **هداء الجالي**

تصميم الغـــلاف: **محمد آدم**

موديل الغـــلاف: **هند جمال**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقــم الإيـــداع: 16855 / 2016

الترقيــم الدولــي: 5 - 120 - 779 - 977 - 978

الإخـراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - **موبايل:** 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

هِداءِ الجالي

رواية

سلك شائك

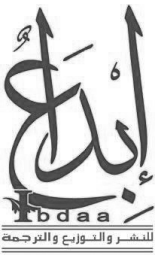

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى ذلك الرجل الذي كتبه القدر لي أبـًا....

كتبك القدر أبا لي، وسطرت أنا حروف اسمك، أبا وأخا وحبيبا ومُلهما لروحي..

في كل سطر قمت بسرده يا أبي، تذكرتك، فتألمت، فنزف قلبي قلمي أدبًا...

ملهمي، أشتاق لصوتك، رائحتك حتى النظر إلى عينيك. رحيلك يا أبي علمني القوة والإبداع، لك ولروحك تُهديك طفلتك ما خطَّت يداها.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

obeikan.com

obeikan.com

دوما كُنت فتاة الوقت المُتأخر فعندما خُلقت اختار الله وجودي في هذا الزمان وفي هذا الوقت من الألفية الثانية من التاريخ الذي صنع الفوضى بعواطفي والذي أوجدني في وطن لا يُشبهني ولا أشبهه.

وطن اختلس مني أحلامي وآمالي ورغبتي وأنوثتي وزجَّ بي هنا حيث أجلس لأكتُب لك وحدك ما عانيت بعدك وما عانيت معك، وحدك تعلم الحقيقة، ووحدي أُخفي قلبا لم أرغب يومًا أن أخفيه عن عالمي؛ أنا الآن أخفيه في كتاباتي قبل قلبي، فأنا أكتب حكايتنا تلك لي ولك، ليُوثق عقلي تاريخي معك، ولأمحو التاريخ الذي وثقني ضدك.

التاريخ الذي وثقني ضدك كقاتلتك، فأنا لم أحاول قتلك يومًا سوى في سرير الفوضى العاطفية الذي زجَّ بنا للمتعة؛ حاولت حينها قتلك حبًّا ليس أكثر.. فهل تذكر تِلك الرسالة التي أرسلت لك بها ذات صباح يتنفس عطرك؛ قلت لك:

ليلاً تجردت من ملابسي لأتحرَّش بنفسي في موعد خجلت أن أُصَارح به كل الرجال الذين عرفتهم في الروايات... في موعدي العاري من الحقيقة استدعيت كل الرجال الذين أحببت قِصصهم، وكأنني

أستدعي بعض الجان لحفلة سِحر.. وَحده جسدي العاري هو الحقيقة وهؤلاء الرِجال الخيال.. بدأت بأول رجل وصوت داخلي لا أُريدك، رجل الشهوةِ والخطيئة، واتجهتُ عاريةَ نحو الآخر ونفس الصوت يجتاحني، لا أريد رجل الخيانة.

مَررت بهم جميعًا ولم أجد الصوت الذي بداخلي يقول لأحدهم نعم. وَحدُه الضَجر والحزن أخذ بيدي لهؤلاء الرجال الذين حلمت يوما بمضاجعتهم جميعًا، لكن عفة جسدي منعتني.

ثمة أجساد تقود أصحابها للعُهر الصاخب وثمة أجساد أخرى تقود أصاحبها للعفة.

أجبتني في رسالة ثم ماذا؟، أجبتك ثم إن جسدي سيُصبح لك يومًا.

سيقودني للعفة وسأقوده أنا لأشعل نيران الرغبة بيننا، أنا منحتك شرفي كـ قارورة عِطر أهديتك إياها، أهديتُك رائحة عفتي، أهديتُك إياها غير مُبالية للقدر الذي سرقك مني.

القدر الذي كنت أثق دومًا في كرمه لي ففاجأني بِكمٍ مِن الفواجع، وأكبر فاجعته أنت... فلا أعلم، هل فجيعتي في القدر أم في الوطن.

أنا لم يعترينني يومًا ما أهديتك من دِماء الشرف، فأنت أهديت دماءك للوطن. أنا أخبرتك بأن الدم وهْمٌ، وهْمٌ تصنعه العينان، فـ نحن عندما

obeikan.com

نموت ننزف أحلامًا وأمالاً وطمُوحات، ولا يهُم إن كُنا ننزف دماءً، قلت لك ذات ليلة بأنك لو أبصرت لرأيت ما نُزف مني معك في تلك الليلة من شراسة أحلامي وأحاسيسٍ أهديتك إياها في سريرٍ يجمع بين أسوأ الأعداء حظًا. أعداء صنعهم الوطن عنوة غير مُبالٍ بـ أحلام أطفالِه. جعل من الحدود سِلكًا شائِكًا بين الوطن وأبناءه، وبيني وبينك.

فـ أنا ابنة الإرهاب الغاشم علنًا وأنت رجل الحدود. تعلم سرًا من أكون ويعلم العالم كله علنا من تكون، "أمجد عبد الحميد" ذلك الاسم الذي اختارته لك عائلتك جبرًا ولم تختَرْه أنت. فليس من حقِك أن تختار الاسم الذي تُريده. ولأن الإجبار في هذا الوطن علمٌ يُدَرّس.. أجبرني الوطن على رَحيلك عني..

بإمكان الموت أن يجعل صَريعهُ سعيدًا بالنهاية، وبإمكان الحياة أن تجعل أحيائها تُعساء بالبداية وتفاصيلها، وحده الموت يمنحنا الراحة.

"أمجد" أنت الذي اخترت أن تُصبح رجلاً للحدود، فأنت دائما تعشق الفواصل، ولكن معي أزلت ذلك السِلك الشائِك في حُبنا.

أنت رَجُل عسكري بارع وأنا فتاةٌ كاتبة، لم أُضف لها أنا ابنة من؟ أتدري لماذا؟؟ لأنني لم أشعر يومًا بأنني ابنة قضية لا تُشبهني.

أنا ابنة الحُلم، ابنة القلم، ابنة قضية الحب التي تُشبهك. أبي ليس

رجُل فقط، أبي قضية لم ولن أخجل يومًا منها.

فأنا معك أقف على الحياد؛ أؤمن بقضية أبي السياسية وقضية حدودك ولا أتدخل في تفاصيل التشتت والغبطة والانحياز والتسلط اللغوي والأدبي لأقنع قارئًا، هو أنت، بلمحات سياسية لا تعنيني، كنت تعلم أنني فتاة الحرية مساءً، ونهارًا ابنة التجرد من القيود والمشي بين الألغام؛ الألغام التي ما إن وَضعت أقدام قلبي بالقُرب من قلبك انفجر ذلك اللغم الغارس في أعماق الحدود بداخلي وفجَّر تلك القضية التي أؤمن بها أنا وأنت معًا، قضية حُبنا وليست أي قضية أخرى تعنيني، ولا حتى قضية حدودك.

أعلم أن ما من أحد غيرك يا "أمجد" سيقرأ تلك الحكاية التي أكتبها عني وعنك، وأنا على يقين أن روحك حولي تختلس النظر خِلسة لتقرأ ما أكتُب قبل أن أرسلها لك في مَرقدك حيث تقبع في مقبرة الشرف.

أجلس على حافة الذاكرة، فلا عقلي قادر على النسيان، ولا قلبي قادر على التحرر مِنك ولا حتى قلمي قادر على أن يكُف عن النَزيف الأدبي لسرد تلك الحكاية.

أتذكُر ذلك اليوم في المول؟ أول لقاء بيننا! وتلك النظرة التي اقتحمتني، وذلك الفضول الذي دعاني لأكتشف شخصية رجل يقرأ ما أحببت!.

obeikan.com

في تلك الزاوية من المول حيث يضع تُجار الكَلمة رواياتهم وكُتبهم لجني المال لا لإثراء الأدب العربي، كُنت تُمسك برواية أذهلني إمساكك بها قبل أن تُذهلني أنت الذي تُشبهني إلى حد كبير في الكبرياء والغرور اللذان لم أمنحك يومًا شعورًا بهما.

كُنت تُمسك رواية لـ مُلهمتي (جاين أوستين)، أذهلني حينها اختيارك، فأنا لا أعرفك، ولكني عرفت تفاصيلك مما تقرأ؛ فأنت رجل الكبرياء، فحتمًا ستشتري رواية (كبرياء وتحامل) لجاين أوستين، تراني حينها تعمقت تفصيلاً في ذاتك، فأنت رجل الكبرياء والرومانسية والكوميديا.

تراني أجمع تفاصيل عكفتُ على حفظها عن ظهر قلب معك، أحتفظ بها لنفسي ترتيبًا من حيث أهميتها بداخلي..

كنت أقف أمامك في ذلك المول أنظر إلى رواية جاين أوستين أكثر من نظراتي إليك، فأنا أعرفك مما تقرأ وأنت تعرفني مِن عيني. فأنت كنت تنظر لموضع عيني تمامًا - كما جمعتني بك الحياة قضية واحدة، قضية الحب - أنت كنت تبحث عنها بداخل عيني وأنا كنت أبحث عنها فيما تقرأ.

لم يخفق قلبي ذات ليلة تلك الخفقة إلا معك في هذا اللقاء الأول، تمامًا كإحساس الطفل الذي يُولد ليرى العالم، فيخرج من عالم الخيال

للواقع بصرخة، صرخة كانت بمحاذاة الحدود وهي أمه وجدار رحمها الذي يفصله عن العالم الخارجي الحقيقي، فهو يقبع في الخيال تمامًا مثلي أنا وأنت في قصتنا، بيني وبينك سلك شائكٌ تجاوزته أنت نحوي بنظرة وأخشى أنا الآن أن أُفصح عن هذا التجاوز.

اليوم بالنسبة لي لا يعني الليل والنهار بقدر ما يعني لي الحقيقة والخيال، فالنهار لا يحمل الحقيقة المُطلقة والليل لا يحمل الخيال الضاجر والصاخب.

فأنا وإن ذكرت اليوم رقمًا طبقتُ تلك الفلسفة التي تضيفك رقمًا في تعداد الشهداء ورقمًا في تاريخ رحيلك، عبثًا لا يهم ما التاريخ اليوم، ولكنني أتذكر أن السجّانة قالت لي إن غدًا هو الأول من نوفمبر؛ نوفمبر شهر الحظ للرجال وديسمبر شهر الأماني للنساء.

قالوها فأخفقوا؛ فـ نوفمبر شهر يحمل الحلم قبل أن يرحل العام وديسمبر شهر يرحل بالأحلام والأماني ويأخذ معه العام..

أتذكر يومًا أنني أخبرتك أنني أعشق تفاصيل اللحية، وأن إحساسي بجمالها يُصيبني بإثارة وجاذبية، فوجدتك في السادس من نوفمبر تُفاجئني بلحية لم أعهد جمالاً مِثلها، فقد صنعت لذة مِن الخيال لقلب من الحقيقة، فارتديت لحية صناعية لتُغري أنوثتي بنظرة، فأنت رجل لا تُشبه السنين في فوضتها العارمة بأحلامي.

أنت تحديت السنين وحققت لي بعضًا من أحلام الأنوثة، وحدك مَحوت المنطق ومنحتني الفلسفة العشقية المُريبة في اجتياحها لأنوثتي. كيف لرجل جيش مثلك أن يرتكب حماقة كتلك (أن تأتيني في ذلك اليوم بلحية صناعية، ومن قبلها بأن ورطت نفسك بُحب ابنة أكبر قيادات الإخوان المسلمين).

أذكر ذلك اليوم وهذا المكان على كورنيش النيل، هذا المكان والميعاد الذين لم أُخلفهم أبدًا، فقبلك كُنت فتاة المواعيد المُتأخرة والأماكن البعيدة عن قلبي، ولكن مُذ عرفتك لم أعهد للتأخير ميثاقًا بأن يخطو قلبي ولا أن تمحوا أماكن لقاءنا آثار قدمي.

دومًا أحفظ الأماكن ومواعيد لقاءنا منذ أن وطأ حُبك عرش قلبي. أول لقاء بيننا كان في الأول من نوفمبر، هذا التاريخ الذي سُجل في تاريخ عقلي وليس في تاريخ وطنك...

أرى أنه وإن كان هناك قارئ آخر لروايتي تلك غيرنا فستُصيبه الدهشة والذهول من فرط الجنون الذي أصابنا في تلك القصة، فأنا ابنة القيادي البارز في جماعة الإخوان المسلمين أو بالأحرى حاليًا (الجماعة المحظورة)، وأنت "أمجد عبد الحميد" قائد كمين قبر عُمير بالشيخ زويد في سيناء، عبثًا هذا الحب يأتي في المكان والزمان والفواصل الشائكة.

يأتي الحب مُتزينًا مُرتديًا أجمل الجُمل والكلمات تفصيلاً، ويحمل معه راية الأناقة ولكنه يختار الوقت والمكان الخطأ ويضع الفواصل الشائكة بين الأحبة تمامًا كما وضعني مع رجل يقبع عند الحدود بين سلك شائك لا أرض ملكه هو، فهو الوطن، تلك الحدود التي يقف عندها هي الوطن والعُمق في أرضها هي خيباتنا. أنت رجل الحدود؛ إذن أنت الوطن القائم على قدمه، أمامك يقبع عدوٌّ يتربص بك ليل نهار لتغفو قليلاً وتستيقظ علي طعنةٍ من الخلف من أبناء وطنك المُغيبين.

أذكُر أنك أخبرتني ذات يوم بأن العدو يُرسل لكم أبناء الوطن ليطعنوكم من الخلف تمامًا مثلما يفعل الشيطان إذا أراد إهلاك البشر يُسلط عليهم الأقربون منهم ليُفسدوهم..

أنتبه فجاءه ليدي التي لا تتوقف عن الكتابة ولعقلي الشارد في تلك الذكريات، وحده لساني الصامت غارقًا في ذلك النزيف اللغوي والأدبي أما قلبي فيحاول خِداعي لعدم الحضور، فهو يريد التهرب من تلك الذكريات ولكن نبضاتُه لا تُكف عن التحدث فيما مضي، فحضوره مرغمًا.

كنت أكتب بقلم يُخرج لون الحبر الأسود؛ وهي الحقيقة المؤلمة التي يُخرجها ذلك الحبر تمامًا مثلي، أرتدي الأبيض في تلك الزنزانة وأخفي بداخلي حقيقة مؤلمة تحمل السواد الكاحل من الألم.

مُخيفة حقًا تلك المظاهر الحقيقية التي تُخفي بداخلها عكس ما تحمله في خارجها. تمامًا مثل أناس كثيرين يرتدون من الخارج ثوب النقاء ويحملون بداخلهم أسوأ النوايا.

أنا الآن أرتدي بياضًا ناصعًا، وأخرج من قلمي الذي أحمله حبرًا يحمل حكايةٌ مُظلمة، أقبع في زنزانة مساحتها خمسة وعشرون في خمسة عشر مترًا، لا أملك فيهم سوى مترًا في مترين مرقدا لجسدي الهزيل وهو حجم مرحاض تلك الزنزانة.

لا تعترينى رائحتها ولا البرد ولا حتى الجوع، تلكُم أحاسيس أخبرتني أنت ذات ليلة أنها ليست هامةٌ بالقدر الكافي لتجعلنا نموت، فيكفي إحساسنا بالأمان ليجعلنا لا نشعر بتلكم الأحاسيس السابقة.

ولكن ما سأموت بسببه هي تلك الحقيقة التي أحملها بداخلي وحدي بين طيات نفسي ودهاليز الذكريات المؤلمة، تلك الحقيقة لن أخبرها سوى للورق ولرَوحك التي تقبع في السماء..

أُعيد قراءة تلك السطور التي كتبتها لأستعد لتوثيقها في تاريخي الذي صنعته لي ولك وحدنا، أقبع أنا في سجن لا يقل ازدراءً عن سجني الحقيقي؛ سجني الداخلي الذي أعيشُه يملؤه فحيح حياة الظلم، أما هذا السجن -المادي- سجن القناطر- تتساقط منه الثعابين من فتحات السقف المُظلمة علي، ومن حولي النائمون كالملائكة، فقد كتب

عنهم التاريخ بأنهم شياطين أرْدن زعزعة أمن الوطن، فتيات لم يبلُغن العِقد الثاني من عُمرهن، أردن زعزعة استقرار الدولة!، يا للحماقة! كيف أن النِضال من أجل قضيةٍ مُكلفٌ هكذا؟.

أما أنا!! فلا يهمني أن أناضل من أجل قضيتي علنًا، فأنا ناضلت من أجل قضيتي أنا وأنت دومًا سرًا... فأنا لا أختلف كثيرًا عن هؤلاء الفتيات، هن ناضلْن من أجل الحرية السياسية، وأنا ناضلتُ من أجل الحرية في الحب.. لم يُتح السجن لأولاء الفتيات الصغيرات أن يعشن حُريتهن داخل السجن بإنسانية، فجلب لهن التعذيب النفسي بسبب تلك الثعابين، جلبوها بغبائهم المُفرط نحو الطبيعة والبشر معًا.

أتذكر منذ بضعة أيام أنني كنت أشتم رائحة حريق، وأخبروني بأن إدارة السجن قررت حرق المُخلفات في الحديقة، مما أسفر عن احتراق الأشجار، وما هي إلا أيام حتى هربت هذه الثعابين بعد الحريق إلى فتحات السقف، لتتساقط علينا ليلاً كالشهب.

حاولنا أن نصرخ ونصرخ لتدخل السجانة "نعمة" وبيدها عصاها، حيث ظنت بأن شجارًا سياسيًا قد نشب بين "عايدة" ابنة حزب الأحرار و"منى" فتاة رابعة المُلقبة "بأم الصابرين".

الأولى تحمل قضية فكر، وتملك قلمًا أودى بها إلى غَيَاهِب الظلمات بيننا الآن، والثانية تملُك قضية أم، فهي أم لشهيدين، فولداها توفيا

في ميدان رابعة، وجاهدت هي حامله قضية نِضال من أجلهم.

أورثها ولداها قضيتهما برحليهما، فعكفت هي على الدفاع عن تلك القضية من أجلهما، وحتى وإن لم تكن مؤمنة بالقضية التي مات ولداها من أجلها، فقد أجبرت نفسها على الإيمان فقط من أجلهما، قضيتها الأكبر هي قضية الأم المكلومة..

دائمًا ما كانتا "عايدة" و"منى" تتشاجران بدون سبب حقيقي نضع أيدينا عليه، فكلتاهُما تثأر لقضيتها وفكرها من أي قضية أخرى. عندما دخلت السجانة "نعمة" تحمل عصاها وتلوح بها يمينًا ويسارًا، غير مُدركة لما حدث؛ وفجأة تنتبه لوجود ثعبانين بطول ستين سنتيمترًا، يتقلبان على الأرض، فتصيح صارخةً مُستنجدة بالأمين "عبدالحق" وهو المُناوب الليلي علينا، فيأتي "عبدالحق" مُسرعًا ويدخل ليرى هذا المنظر المُعتاد عليه دومًا في هذا السجن اللعين، فيُمسك بأحدهم ضاغطًا على رأسه بيده ثم يضعه تحت قدمه فتنفصل رأسه عن جسده ، ثم يكررها مع الثاني فتنقطع رأسه هو الآخر ..

ما فعله "عبدالحق" تمامًا هو ما يفعله الوطن بأطفاله، ينحر أعناقهم كالجزار الذي ينحر ضحيته. أردتُ الموت مثل تلك الثعابين، فدومًا قاومت رغبات نفسي بالرحيل، ليس من أجل شيء ولكن من أجلك أنت.

بسبب تلك الفلسفة التي علمتني إياها ذات مساء، عندما أخبرتني ألا

أرحل مِن الحياة بدون هدف حتى وإن شاءت الأقدار وعجلت برحيلي، فيجب أن أصنع لنفسي هدفًا وهميًّا بداخلي قبل الرحيل مباشرةً، قلت لي اصنعيه وحرريه بداخلك وانقليه للأحداث وتعايشي معه في دهاليز نفسك.

أقاوم هذه الرغبة بالرحيل لأنني ما زلت أصنع هدفي لك بداخلي وأتعايش معه، فأنا أحمل قضية عشق محظورة، وأنت تحمل قضية وطن مُعلن عنها في كل البقاع والأراضي، فرحلت أنت بهدف وتركتني أنا ولم أكمل هدفك الذي بداخلي، فهدفي كان طفلاً يُخلد ذكرى تلك القضية المستحيلة.

سجن القناطر يا " أمجد " هو المكان الذي أبني بداخله قصرًا لعشقنا في مُخيلتي، أسكُن به أنا وأنت وحدنا، تراني مجنونة أن أبني لك قصرًا داخل سجن؟!

نعم ! إنه جنان، مِثلما علمتني أن لا يأس مع الأماكن ولا يأس مع الزمان وأن لا نكُف عن الأحلام مهما حدث. هنا في هذا السجن أشعر بأنني الوحيدة التي تحلُم والباقي واقع، وحدي أنا الخيال وجميعُهم قصص حقيقة.

*****

قبل أيام نُقلت المُعتقلة إيمان في العِقد الخامس من عمرها لمستشفى

السجن مصابةً بُحمى، وأخبروني بأنها مُصابة بحمى من التسمُم، شعرتُ حينها برغبة أن أكون أنا المُصابة بالتسمم، وأن أرحل فقد أوشكت على صُنع الهدف لك بداخلي، فرغبتي بالرحيل باتت مُلحه عليّ.

هذا المُعتقل كشف لي الكثير عن عالم السجون، أن تكون مُتهمًا في قضية جنائية، هذا أمر لا يعنيهم؛ وحدها السياسية بكل ألسنتها هي التي تعنيهُم، في هذا السجن تجد أن المساجين الجنائيين لهُم حرية أكبر لفقر عقولهم الفكرية أما المُعتقلين السياسيين فعليهم من القيود أكبرها لغنى عقولهم الفكرية.

فإن كنت ذاهبًا لزيارة أحدهُم وهو مسجونٌ جنائي اجلب له معك كل ما تُريد من أطعمةٍ وسجائر، وإن شئت دفعت المال لتنقل له المُخدرات، وضع في حُسبانك أن الزيارة نِصف ساعة، وأنت جالس أمام ذَويك من المساجين، أما إن كنت ذاهبًا لزيارة أحد مُعتقلي السياسة، فلا تُكلف نفسك شيئًا إلا لو كنت من ذوي النفوذ، ومُحال أن يزور صاحب نفوذ أصحاب القضايا الفكرية، وضع في حُسبانك أيضًا أن زيارتك لن تزيد عن الخمس دقائق واقفًا على قدميك..

*****

أضع نقطة على السطر ودمعة على الخد، وأتذكر مولِد السجون مع

مولد مُعتقليها؛ وُلد مُحمد أخي يوم السادس والعشرون من يونيو لعام ١٩٩٣، في نفس اليوم الذي افتُتِح فيه سجنه، ففي نفس اليوم افتتح سجن العقرب في عهد وزير الداخلية حسن الألفي.

سجن يقع على بُعد كيلو مترين من بوابة سجون طُره، وقد كان وقتها "حبيب العادلي" أحد أكبر ضباط الألفي أهمية، مُساعدَ الألفي لشئون الأمن الوطني؛ سافر العادلي إلى أمريكا واستمد فكرة المُعتقلات الأمريكية وعاد لعرضها على "الألفي" الذي وافق بدوره على افتتاح سِجنٍ يستطيعون من خلاله أن يتحكموا في مُعتقليه حسب التقلبات السياسية.

فالسجن مُحاط بسور يبلُغ ارتفاعه سبعة أمتار وبوابات مُصفحة من الداخل والخارج، أما مكاتب ضباط الإدارة تقع بالكامل خلف حواجز القضبان الحديدية.

عندما راودتهم الفكرة لبِنائه اقترحوا بناء ٣٢٠ زنزانة مُقسمه على أربعة عنابر أفقية علي شكل حرف H في اللغة الإنجليزية، ووضعوا في كل زنزانة مِصباحًا قوته مائة وات، بحيث يمكن للإدارة التحكُم في عقاب السُجناء بقطع المياه والإضاءة وغلق الشبابيك.

ومع ذلك فهو لا يقل سوءًا عن سجن القناطر، وكأن أخي قد وُلِد مع هذا القبر اللعين ليَقبع فيه عامًا ويرحل هو ولا يرحل هذا السجن ليَلتَهم

المزيد مثل أخي من بين مُعتقليه. فموت أخي لم يكُن الفَجيعة الوحيدة في حياتي. فالوطن فاجئني كل يوم بفاجعة، وكل يوم بألم جديد وكل صباح بظلامٍ دامس.

أوجد الله لنا الحُرية والكرامة في هرم عقلنا الأكبر، في نفس اليوم الذي يَبني فيه الطغاة القضبان الحديدية لانتهاك حُريتنا وكرامتنا عنوةً، فمن قال يومًا إن الحرية مِنحةٌ بشرية؛ دومًا كانت الحُرية مِنحة إلهية بحتة بمنطِق لا يقبل التشكيك.

محمد أخي كان طالبًا في كلية الصيدلية، حاولت أمي وأبي أن يزرعا فيّ أنا وأخي الأكبر حُب العِلم، فأرهبونا بكابوس الثانوية العامة؛ هذا النظام الفاشل الذي رمى بطموح وأمال طلاب كثيرين وأرغمهم على خضوع أحلامهم لمكتب التنسيق؛ والذي بدوره يُطيح بهم حيث شاء أن يضع أمالهم وطموحهم في رقم ونسبة مئوية تتحكم في مسار حياتهم للأبد.

دائمًا كُنت أضع نقطة في دفتر خواطري وأكتُب جملة أنشأت بداخلي فتاة تتخطى المُستحيل قفزًا، كانت جملة بدون فواصل:

(من أراد المجدُ صنع لنفسِه طريقًا مُخالفًا لما يتبعهُ الآخرون)

فأنا لا أهتم يومًا لما يتبعهُ الآخرون؛ فأنا أتبع أهواء نفسي، أدخلني أبي القِسم العِلمي لأصبح طبيبة، فَخَالَفت أبي وخَسَفت بطموحه الأرض

بأرقام هاوية. فمهنة طبيبة هي طُموح أبي، أما مِهنتي فهي الوهم والخيال، أنا صانعة الأبطال دومًا في كتاباتي، إن أردتُ أن أصبح طبيبةٍ أو مُحامية أو مُهندسةٍ وضعت نفسي بأي من تلك المهن بداخل إحدى رواياتي وتعايشت مع تفاصيل تلك المهنة وإحساسها. فأنت وإن شئت جعلت نفسك كما تريد وليس كما يريد الآخرون.

أخي محمد كان يكبُرني سنًا؛ حاملاً قضية أبي التي لا تُشبههُ، أما أنا فأصغر منهُ سنًا ولكنني أكبر منهُ بقضية حُب. حقًا إن قضايا الحب أثقلُ حِملاً من الوطن وقضاياه السياسية..

محمد شاب عشريني وسيم، طويل القامة وعيناه مُتسعتان، يُشبهك يا "أمجد" لحدٍ كبير في الملامح، كما كان أيضًا قارئً جيدًا مثلك، اشتركتُما معًا في الحب والحزن والشجن والقلق والخوف واللارتباك والفراق في قلبي. تلك الأحاسيس قسمتها مُناصفةً بينكما، واختلفتمُا بخارجي، فبينُكما سِلك شائك؛ فكيف لرجل حدود يُحارب الإرهاب أن يجتمع مع من ينتمي للإرهاب إدعاءً، لن يجتمعا سويًا إلا في قلب فتاة تحبهما معًا، فهكذا اجتمعت أنت ومحمد معًا وتشابهتُما في نفس الأحاسيس بداخلي كما تشابهتُما في اختيار القدر لكُما في حياتي؛ فأنت اختارك القدر لي حبيبًا ومحمد أخًا..

"محمد"، كم كُنت عنيدًا، آمنت بقضية لا تُشبهك، وبأفكار لا ينتمي لها عقلك، فأوْدت تلك الأفكار وهذه القضية بحياتك، وأنت لا تعلم ما

إن كانت تلك القضية حقًا أم ضلالاً..

نحن نحمل قضايا لا تُشبهنا، ولا ينتمي لها عقلنا، ولا ندري حقيقة ضلال تلك القضايا أو صحتها إلا عندما نموت؛ فقط الموت يُحررنا من عبودية الفِكر ويُذهب بعقولنا بعيدًا إلى حيثُ خُلقت حُرة..

أذكر تاريخًا كُنت مُحررةً فيه مِن عُبودية الفِكر والقضايا ومكثتُ وحدي أربعين يومًا، كُنت أشعُر بُحرية عقلي وجمال تلك النعمة التي أنعم علينا بها الخالق. في الرابع عشر من أغسطس من العام ٢٠١٣ كنت في حجرتي أقرأ كِتابًا لأنساب العرب لأعرف حقيقتنا نحن المصريين، هل نحن من النسل الفاسد أم من النسل الصالح؟ قابيل خَلَفَ مِن بعدهِ أقوامًا فاسدون أفسدوا في الأرض، كانت أرواحهُم خبيثة، أما الصالحون فعوض الله آدم بأن صالح ابنه بات خلفًا لهابيل.

الصالح الطيب خلف من بعده أقوامًا صالحون، فحقيقة أن أعرف لمن ننتمي حقًا للخير أم للشر، فحقيقة هل نحن من النسل الصالح أم الفاسد كانت تشغلني كثيرًا خاصة بعد الأحداث التي مرت بها بلدي وأصبحنا فصيلان أعداءً لبعضنا البعض.

في ذلك اليوم كُنت مُنهمكة في قراءتي لذلك الكتاب، وفي التفكير في أمر الانتماء للخير والشر، وأثناء انهماكي وجدت هاتفي يرن فأجبت فإذا بها سارة صديقتي تسألني عن حالي ثم تقول لي:

– طمئنيني ضروري عن والدكِ وأخوكِ؛ فهُناك أنباءٌ عن فض اعتصامي رابعة والاتحادية!!

فأجبتها بكل ثباتٍ:

– سارة، أنتي تُهاتفينني يوميًّا لهذا السبب، لتقولي لي إن هُنالك أنباء عن فض الاعتصامين ولا يتم الفض.

لتردُ سارة بنبرة لم أعهدها من قبل:

– حوريه، هذه المرة جَدية، كُل القنوات في التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي تؤكد أمر الهجوم الليلة، وتدعوا المُعتصمين للخروج الأمِن مِن الميدانين.

أجبتها بنبرة تحمل خوفًا:

– سأُهاتف أبي لأطمئن عليه هو وأخي.

"سارة" صديقتي الفتاة الجميلة، الطيبة، المُثقفة، اختلفنا أنا وهي في القضية الدينية بيننا خط فاصلٌ في الرُسل، نؤمن سويًا بالقضية الإلهية وهي التوحيد ونختلف في قضية الأنبياء؛ فكُل منا لها ديانةٌ ونبي وعقيدة.

"سارة " صديقتي منذ الصِغر، صداقتي لها شذت عن عُرف أهلي؛ فأنا ابنة الرجل الذي ينتقي أصدقاء أبناءه قبل مُستقبلهم، يتحكم

في حديث أبناءه مع أصدقائهم؛ ولكن إصراري على حُبها جعل أبي لا يتحكم في صداقتي لها؛ جميل أن تمتلك صديقًا يرعاك رعاية تشبه رعاية الله لنا.

كانت "سارة" قضيتها الأهم هي السياسة، وكنت أكره أنا السياسة وحديث الآخرين فيها، لكنها كانت تُحافظ على تلك المسافة السياسية بيننا، فهي لا تؤمن إطلاقًا بفِكر الإخوان المسلمين؛ وأنا بدوري ابنة قيادي إخواني، وبرغم عدم إيماني بقضية أبي إلا أنني لا أحب التحدث بعدم إيماني بقضية أبي مع الآخرين..

فدائمًا ما كان أصدقائي يعلمون تحرر عقلي مِن كل الأحزاب والأفكار السياسية، يعلمون أنني أؤمن بأن الحرية مِنحة مِن الله لنا ولم يمنحنا إياها حاكم، وأنها إن مُورست عليك ضغوط وقيدت حُريتك، مارستها أنت بداخلك تمامًا كما أمارسها أنا على الورق الآن..

" سارة " صديقتي شاركت في مظاهرات الثلاثون من يونيو برغم كونها واحدة ممن اختاروا الرئيس محمد مرسي حينها، وبعد عامٍ من انتخابه كانت من أوائل الناس الذين دعوا لإسقاطه..

أنا لم أكن أبدًا أدافع عن جماعة الإخوان المُسلمين؛ لا بلساني ولا بعقلي ولا بقلمي؛ فكان أبي يعلم ما بداخلي عندما كان يحدثني عن أخبار الجماعة وعن إنجازاتهم وعن كل التفاصيل والأمور التي تحدث

بداخل مكتب الإرشاد، كنت حينها أستمع إلي أبي وأستمع إلى عقلي الذي كان يُخبرني دومًا (لا تؤمني بقضية لا تُشبهكِ).

هذا الوطن قضيتكم الكبرى؛ لا أؤمن به فقد انتزع مني حبيبًا على الحدود وأخًا في المعتقل، وأمًا وخالاً، فقدتُّ فيه كُل من أحُبهم، ولم يتبق لي فيه سوى أبٍ مُتسلطٍ يقبع في سجنٍ لا يختلفُ كثيرًا عما أقبع فيه الآن..

في تلك الليلة بعد أن أغلقتُ الهاتف مع "سارة" صديقتي، عُدت وأمسكت هاتفي لأهاتف أبي وأطمئن عليه، ولكن أبي لم يُجب على هاتفه، فأعدت مُهاتفة أخي ولكنه أيضًا لم يُجب، تسلل الشك والخوف لقلبي، فقد يكون حديث "سارة" صحيحًا، وأن هذه الأنباء حقيقية، فاتجهت إلى حُجرة أمي، فكانت خالدة في نومها؛ فوقفت أمامها برهة أفكر، هل أخبرها بما أخبرتني به "سارة" أم أتركها نائمة، فـ أمي مكثت أربعة وأربعين يومًا في ميدان رابعة تُساند أبي في قضيته، وكانت تزورني كل ليلة لتطمئن عليّ، وتخلد للنوم وتذهب صباحًا للميدان.

أنا لم أُرد أن أذهب للميدان منذ بدء الاعتصام، رغم أن أبي في يوم الثامن والعشرين من يونيو طلب مني الاستعداد للاعتصام المفتوح في ميدان رابعة العدوية لمُساندة الرئيس محمد مرسي، لكني رفضت؛ أحببت دومًا تمردي في مثل هذه الظروف على الأمور والقضايا التي لا تُشبهني.

فعندما طُلب مني هذا الأمر انزعجت كثيرا بداخلي، فأنا لا أشبه الميادين في ثوراتها الفوضوية ولا شعاراتها وهتافاتها المُزيفة، أنا أشبه تلك الفتاة التي بداخلي في تمردها وحرية عقلها؛ فأنا أؤمن بحرية عقلي دون تبعية سياسية ولا عبودية الفِكر، أنا لم أجد نفسي فيما يتبعهُ أهلي أو أصدقائي، فبعدما طَلب مني أبي الذهاب لميدان رابعة طلبت مني "سارة" بعدها بيومين الذهاب إلى ميدان التحرير استعدادًا لانطلاق أول أيام تظاهُرات الثلاثين من يونيو، فذهبت ذلك اليوم لميدان التحرير وميدان رابعة، ورأيت يومها وطني يضع سلكًا شائِكًا بين أطفاله.

مُريبة تلك الحياة؛ حين نُولد في نفس المكان، وبجانب بعضنا البعض نلعب ونلهو ونسهر، ويأتي يومًا نُعادي فيه بعضنا البعض من أجل ذلك المكان الذي يجمعنا سويًا، نصنع في عقولنا وهمًا ونقنع أنفسنا بأننا نتحرر، ولكنها ليست حريةٌ؛ هي نكسة جديدة صنعها الغرب بنا، أطفال وطنٍ واحد يُعادون بعضهم البعض منذ هذا اليوم، وكأنهم أعداءٌ على حافة معركة قتالية.

يوم ذهبت للتحرير تملكتني مشاعر كثيرة؛ منها فرحةً بالتمرُد الذي أعلنه الشباب سريعًا على هذا الرئيس قبل أن يُكمل مُدته، وأيضًا فرحة بالحياة التي دبت في ميدان التحرير بعد أن مات التمرُد فيه منذ رحيل مُبارك عن الحكم.

للحظات آمنت بقضيتهم وشاركتهم الهتافات، نعم شاركتهم الهتافات يوم أخبرتك يا "أمجد" ذلك؛ ضحكت ضحكةٍ ساخرةٍ وقلت لي:

- ابنة قيادي إخواني تُشارك في مظاهرات التحرير في الوقت الذي تحكم فيه جماعة أبيها البلد.

قلت لك نعم، فعلت ذلك مُحاولةٍ الإيمان بقضية أخرى غير مجبرةٍ عليها، ولكنني لم أؤمن بها إطلاقا، وفي اليوم ذاته اتجهت إلى ميدان رابعة وبداخلي ميدان التحرير - ميدان التمرد - وما إن وصلت لميدان رابعة وبدأت أشعر بالتوتر، كامرأة تخرُج من قصه حب فاشلة وهي في مواجهة قصة جديدة.

بدأت أستمع حينها لكل الأحاديث والهتافات وأتقرب من الجميع، فكان مُعظم من بالقرب من المنصة أصدقاء لأبي وجيرانُنا ومعارف كثيرين، وحدي كنت أحمل التحرير بداخل رابعة، كنت أرى نفسي السلك الشائِك بين رابعة والتحرير.

شعرتُ فجأة بالحنين إلى ما ينتمي إليه أهلي، أعجبتني ثقة الجميع وتماسكهم ومساندتهم للرئيس، وبدأت بالهتاف وأحسست لبرهة أنها قضيتي!.

مضت ساعات لي بداخل رابعة، وطلبت من أبي أن يسمح لي بالعودة للمنزل لأنني مُرهقة، ولا أستطيع النوم في الخيام، فقد كانت الخيام

obeikan.com

منصوبة والجميع يستعد لأكبر تحدٍّ في تاريخ وطني بين ميدانين، كل منهما يحمل قضيةً وفكرًا، فتُرى من سينتصر لفكره منهم؟؟!!.

لم يُسجل التاريخ لوطني مثل هذا اليوم، ميدانان يكتظَّان بأحرار الفِكر؛ أحدهما يتمرد، والآخر يُدافع ويتمسك بقضية جماعته وهدفه الذي سعى عبر قرنٍ من الزمان للوصول إليه وها هُة يُدافع عن قضيته ويتمسك بها.

لم أجد فيهم قضية تُشبهني، ولم أجد أي ميدانٍ يسكُنني، فكثيرًا ما نسكُن أماكنَ لا تسكن بداخلنا تمامًا كما نعيش في أوقات ليست لنا، لم أستطع الذهاب بعد هذا اليوم إلى أي مكان، ومكثتُ في المنزل، وكانت أمي تأتي إلى المنزل كل يوم لتطمئن عليّ وتذهب في اليوم التالي للميدان. لم يحدثنِ أبي أو يُجبرني حينها على الذهاب مرة أخرى لميدان رابعة، وكُنت أرى في عينيه حُزنًا كبيرًا عندما كان يُرسل محمد أخي صورهم معًا من داخل الميدان.

في يوم عزل مُرسي لم أشعر بالفرحة ولا بالسعادة ولا حتى الحُزن بقدر حُزني من المجهول ومن بحور الدماء التي ستسيل وهذا ما كنت أخشاه..

أتذكر ذلك اليوم وأنا شاردةً حينها، هل أيقظُ أمي أم أتركها؟ ولكنني قطعت شرودي وأيقظتها وقُلت لها إن "سارة" هاتفتني وأخبرتني بأن

اليوم فض اعتصام رابعة وبأن الأخبار حقيقية.

استمعت أمي لما أخبرتها به برهبةٍ وخوف، وأمسكت بهاتفها واتصلت بأبي فلم يُجبها، ثم عادت وهاتفت أخي فلم يُجبها أيضًا، فحاولت أن تتصل بأصدقائنا وأقاربنا بداخل الاعتصام ولكن دون جدوى لم يُجب أحد.

و بعد أقل من ساعة بدأت شبكات الاتصال تنقطع، ولم نستطع أن نتواصل معهم هاتفيًا، فكفت أمي عن محاولتها، دون جدوى إيجاد أحد يطمئننا على الأوضاع، واتجهتُ أنا لأتابع الأخبار على مواقع التواصل الاجتماعي والتلفاز، فوجدت أن الخبر حقيقي، وأن السُلطات بدأت في عملية إخلاء ميداني رابعة والنهضة، كنا نُتابع أنا وأمي الأخبار بحذرٍ وخوف من المجهول، كنتُ أعرف حينها شعور أمي.

أمي لم تكُن مؤمنة بقضيةٍ خاصة بها، بل كانت تُؤمن جبرًا بقضية أبي التي لا تُشبهها، وأجبرتها الفطرة والعادات والتقاليد على الانصياع لأوامر أبي في كل شيء؛ حتى في فكرها وإيمانها بأية قضية.

في ذلك اليوم كنت أقرأ في أعيُن أمي خوفًا وقلقًا على أخي أكثر من حُزنها وقلقها على أبي، أذكرُ رواية عن الفراعنة قرأتها ذات ليلة تحكي أن أمًّا فقدت ابنها وزوجها، فظهر لها الإله أوزوريس وخيَّرها أن تختار بين زوجها وابنها ليعود أحدهما للحياة فاختارت ابنها بدون تفكير،

هكذا هي الأم تختار بقلبها الفطري وطبيعتها الحنون من حملتهُ بداخل أحشائها، غريزة الأمومة غريزة مُتكاملة لا يُمكن المُزايدة عليها أبدًا، أما أنا فكُنت أبكي وطني وليس أخي وأبي، أبكي وطنًا أعلمُ جيدًا أن عند ظهور الصباح الكاحل السواد سيختلط هذا الميدان بدماء الطرفين، فهل ستُفرق الأرض بين دماء إخواني أم شُرطي؟ بالطبع لن تفعل، فقط نحن من صنعنا هذه الفوضى لتُصاب الأرض بالذُعر مما ألحقناه بها من سَفكٍ لتلك الدماء عليها فهي في الصباح ستشكي خيباتنا لله.

ما أصعب أن تشكونا الأرض لله، فهي أعظم ما خُلق، أهدانا الله إياها لنُصلح ونعمل عليها، وها نحنُ نعصي ما أمرنا الله به، ونسفك فيها الدماء غير مُبالين بالعقاب الإلهي الذي سيحلُ علينا جِراء ما خلفناه من سفكٍ للدماء، وكل هذا بدعوى أننا نبحث عن الحرية والكرامة، حماقة ما فعلنا في أنفسنا وفي الأرض التي نعيش عليها، أم تُرى أن الوطن هو من ارتكب حماقة ضدنا، وبالطبع لا يهمني أن أخوض في تفاصيل من دفع بالأمور لكل هذا العنف الدموي.

ما أرهبني حينها أنني أخاف الأرقام، فهل سأفقد أبي رقمًا، أم أفقد أخي رقمًا، أم أفقد أقاربنا وأصدقاءنا أرقامًا، أم نفقد جنودًا وضُباطًا أرقامًا، كُنت لا أدري حينها كم عدد الأرقام التي سيحملها الصباح بعد انتهاء هذه الفجيعة الكُبرى، في الصباح كانت قد مرت ساعات شعرت

معها أنها أيام طوال.

كنتُ أضع أمامي ورقتان أكتب فيهما الأرقام من الواحد حتى المائة، كتبتُ تلك الأرقام في كل ورقةٍ على حِده، حتى لا أقع فريسة لصدمة الأرقام، فالورقة الأولى تحمل أرقامًا لمُعتصمي رابعة، والثانية تحمل أرقامًا للجيش والشرطة، فالوقع النفسي لدماء الطرفين عندي متساوٍ، فالطرفان عندي متساويان في الحُزن بداخلي، وفقدانهم هو أرقام تُضاف لفواجع هذا الوطن.

أعلمُ أن الدماء من الطرفين ضرورة حتمية في هذا النزاع الفوضوي، وفي تلك الأثناء كانت أمي مُصابة بالذعر والخوف، وكانت تريد أن تذهب إلى الميدان بنفسها ولكنني أقنعتها بالمكوث في المنزل وانتظار المجهول، فما كتبه الله لنا سنراه، لا أعلم حتى لحظتي هذه من كان على صوابٍ ومن كان على خطأ، كل ما أعلمه أن الدماء التي سالت من الطرفين سنُعاقب عليها جميعًا، شبابًا وكبارًا وصغارًا ونساءً وشيوخًا ووزراءً وساسة ومثقفين.

سنقف جميعًا أمام الله ليسألنا ما الذي أوصل الأمور لهذا، وكيف لم نستطع أن نوقف هذا النزيف.

قبل أيامٍ من هذا اليوم، حاول بعض من المُثقفين والسياسيين ورجال الدين والعلماء وأئمة الدعوة تقديم مبادرةٍ لفض الاعتصام سلميًا،

فباءت كل المحاولات بالفشل، لأن مُعتصمي رابعة كانوا متمسكين بالدفاع عن قضيتهم؛ قضية الشرعية.

تلك القضية التي حملها ذلك الميدان محاولاً التمسك بها والدفاع عنها حتى سالت به الدماء من أجل تلك القضية، تمامًا كميدان التحرير الذي تمسك بقضية التمرد محافظًا عليها وأعلن انتصاره..

وسط بُكاء أمي في ذلك اليوم، حاولت أن أتابع في هذا الصباح البائس الأرقام التي أخافها دائمًا، فلا يهمني رأي العالم ولا رأي المُحللين السياسيين، ما يهمني حقًا هي تلك الأرقام التي سيُسجلها التاريخ.

كانت الأخبار مُتضاربة عن عدد الضحايا القتلى والجرحى من الطرفين، ولم تُؤكد الأخبار حينها، ومرت الساعات وانقضت؛ تلك أكبر القضايا السياسية ألمًا على قلبي ووقع الضحايا من الطرفين، ومرت أيام قلائل كُنا لا نعرفُ فيها أين أبي وأخي، وطال طريقُ البحث بين الأموات أولا ثم المصابين ثم لم نجدهم أمواتًا ولا مصابين ووجدناهم مُعتقلين.

تم اعتقال أبي في سجن المزرعة بتُهم كثيرة جدًا، ما أذكرهُ منها زعزعة استقرار الوطن واقتحام السجون في أحداث يناير. أما أخي فوجهت له تُهم لا تختلفُ كثيرًا عن التهم التي وجهت لأبي.

*****

انقطع حبل ذاكرتي قليلاً وتوقف قلمي عن النزيف اللغوي، واعتدلت في مجلسي في مكاني البائس هذا، واستنشقت هواءً غير موجود، ليست وحدها تلك الزنزانة التي تضيق بي ولكن عقلي وذاكرتي تضيق بي إلى حد العجز عن وصف تلك الذكريات المؤلمة.

شريدة أنا داخل تلك الصفحات التي أكتُبها لتُعبر عني؛ دائمًا ما كُنت أخبر فتاة - كانت أنا - بأن هذا القدر الذي أصابني لا يُشبهني قدر المنى بقدر لم أستطع معهُ منع نفسي عن الجذع.

وحده النسيان سيد عقلي ومالكه، كنت أستدعيه عاجلاً ليزورني بعد كُل فجيعةٍ؛ ولكنه كان يتدلل في زيارتي؛ فمن نريُده وقت الشدة ينفر.

فهلا زرتني دومًا أيها النسيان وملكت عقلي ووجداني، وأطحت بالذكريات أرضًا صريعة.

الفصل الثاني

obeikan.com

obeikan.com

عُدتُ وأمسكتُ قلمي في تلك الزنزانة لأسرد لي ولأمجد قصة عشقنا المحظورة التي أردت توثيقها لقلبي وروحك التي تحيط بي، وَثقتُها لتاريخُنا الخاص بأنها أكبر قصة عشقٍ خُلقت بين الألغام.

في تلك الليلة، في ذلك المول حيث بدأت حكايتنا. كنت أخرُج من باب المول الخلفي بعد أن تبادلنا النظرات الساحرة، أذهلني ركضك نحوي في لهفةٍ وفي يدك الرواية التي أخبرتْني بتفاصيلك، تملكني حينها شعورٌ بالرهبة والخجل وأنت تناديني

- انتظري يا أنسة!

وقفت مكاني ووقف معي الزمان والمكان والأشخاص وأنت.

لبُرهةٍ أصابني التوهان في عالمٍ لم أكن أعهدهُ مِن قبل، عالم جنون الإعجاب، مُثيرة كل قصص العشق التي تبدأ بجنون المُحب وطريقته ومحاولاته للتقرُّب من الطرف الآخر، فكيف أني أُسرت في نفسي إعجابًا برجُل، وأجده يأتي خلفي ليُحادثني.

لثوانٍ معدودة استعاد عقلي رُشده، وأمرني بالرحيل ولكن قلبي أجبر

قدمي على التوقف، فنظرتُ لك نظرة خوف وإعجاب، خوفٍ منك، فأنا أجهلك في وقت فيه أنا فقيدة الأب والأخ، وإعجابٍ داخلي برجُل عرفت تفاصيله مما يقرأ، مرت لحظات ووجدتك تقول لي بكل كبرياء:

- عذرًا على طريقتي، فقد أردتُ أن أهديكِ شيئا.

و صَمتٌ لحظة وقُلت لي:

- شعرتُ بحاجتكِ لقراءتها.

ثم مددتُ يدك لتُعطيني الرواية (كبرياء وتحامُل) "لجاين أوستن"

مددتُ يدي وأمسكت بتلك الرواية فأنا لم أكن أشعر بأنني أمسك بالرواية، أنا كنتُ أشعر أنني أمسك يدك، انتابني زلزالٍ في جسدي لم أعهده من قبل، ولم أكن أعرف ما هذا الشعور الذي أصابني، فأنت تُمسك الرواية بيدك، ويدك لم تلمس يدي، ولكن نبضات شعورك انتقلت ليدي عبر تلك الرواية.

يا الله، كُلما أتذكر ذلك الشعور أشعر كم كُنت عاشقًا مجنونًا معي، فكم من عُشاقٍ قتلهم هذا الزلزال العشقي شوقًا وانهاروا كالبِناياتُ الشاهقة حنينًا، فزلزال العشق لم يصمُد أمامه أقوياءُ الحُب كثيرًا.

عندما أمسكتُ بالرواية، نظرت لك وتلعثمت الكلمات بداخلي، فبماذا أتحدث وماذا أقول، ففوجئت بك تقول لي:

- سأكون سعيدًا ما إن قرأتِ تلك الرواية وأردتِ إخباري عن رأيك فيها، فرقمُ هاتفي بالداخل تركتهُ لكِ.

شعرت أن أنفاسي كالخيول تتسابق في الفضاء الشاسع، ودقات قلبي تزداد ويعلو صوتها تمامًا كإنذارِ الحريق، فقلبي يُنذرني بحدوث كارثة، وبينما أنا في هذا العالم الذي اختطفتني إليه عنوة ورغمًا عن عقلي، وجدتُك تقترب مني وتمسك يدي وتُقبلها.

تلك اللحظات أصابت عقلي بالشلل، ورجف قلبي، ولا أعرف كيف حدث ذلك؛ رجُل غريب يُمسك يدي ويُقبلها، وبعيدًا عن عالم العيب والحرام كيف لنفسي أن تتقبل هذا الأمر!!، أن تقبل بأن يدا رجُل تلمسني لأول مرةٍ في حياتي.

شعرتها حينها يا "أمجد" تلك القُبلة التي طبعتها على يدي، شعرتها بعشقٍ وأخفيت ذلك الإحساس بداخلي خوفًا من أن أحسد نفسي على تلك اللحظة؛ أصابني الحُب بنظرةٍ وركض خلفي لهثًا وأصر على التواصل معي وقبّل يداي، يا لِهذا الحظ!! كم أنا محظوظة لهذا القَدر الذي يُلاحقني.

أنا ابنة المساجد والمجالس الدينية والعادات العمياء والملابس المُحتشمة المُغلقة التي لا تُظهر أي عُري لجسدي، أتيت أنت يا "أمجد" لتُعري عاطفتي من التقاليد، لم أؤمن أبدًا أن الدين حَرَّم الحُب، وإن

كان اللمس مُحرمً، فليغفرُ الله لي تلك اللمسة.

بإمكاننا أن نُخطئ ونتوب؛ ولكن ليس بإمكاننا أن نحب ولا نُخطئ باللمسات، نار الحُب إن اشتعلت أشعلت معها العقل والقلب.

وسَط هذا التوهان العقلي والوَهج العاطفي، انتبهت عيناي حينها لكل هذا البرود الذي يُصيبك، إذ وجدتك تُشعل سيجارتك بكل كبرياءٍ تمامًا كروايتك التي أحملها بيدي، رأيتُك تتنفس منها، هذا الدخان الذي تَزفرهُ من فمك هو أنفاسي التي احتبست داخلك في تلك اللحظات.

تركتني وذهبت... واتجهت أنا لأعود لمنزلي، دقائق عودتي للمنزل أشبه بعُمرٍ جميل أمضيته، أرى كُل شيء أثناء عودتي يشعُ نورًا من مبانٍ ومحالٍ يتزينون في عيني ويزدادون جمالاً، وأنا بداخل التاكسي وأطل من النافذة على عالم جديد لم أعهدهُ من قبل، بعد كل المآسي التي أمُر بها وبيدي الرواية، وسط كل تلك الأحلام الشاهقة والأحاسيس المُضيئة بداخلي أنتبه لصوت السائق ليُخبرني بلهجتنا المصرية:

- الزحمة هتموتنا يا أنسة.

نظرت له وهو رجُل في الخمسينات من عمرهِ يُشبه أبي، في حنيني لأي رجُل بهذا العُمر، فهو يُشبههُ في الحنين بداخلي ويختلف عنه بقضيةٍ أخرى، فهو رجُل يملُك قضية الرزق والسعي، كُنت أنظُر إليه وأنا شاردة

الفكر في أبي المُعتقل وقضيته الكُبرى التي يؤمن بها إيمانًا كاملاً وهي قضية جماعته.

ثم تَوجهت بحديثي إليه وقلت:

– ربنا معاك يا عمو! البلد دي بقت ضيقة في كل حاجة.

صمت السائق، وانتبه للطريق أمامه، فتناسيت حينها الزحام الذي يُحيط بنا خارج ذلك التاكسي، فالزحام مؤلم بالنسبة لي؛ فوسط الزحام يندثر المظلومين والمكلومين والبائسين ليصبحوا بلا هوية أو وجود وسَط الظالمين والفاسدين والمُرتزقة.

مؤلمة هي قوانين الحياة، تُعطي للظالم أكبر الإمكانات وأطول الأوقات ليستحوذ بظُلمهِ وحدهُ على فريستهُ من الضُعفاء.

انتبهتُ لوصول التاكسي للمنزل وأذهلني صمتُ السائق، فهذه ليست عادتهم – الصمت – فأغلبهم كثيري الثرثرةِ والأحاديث، فقد تكون كلماتي قد أخافته أو شعر بانتمائي السياسي!، فنحن نعيش في زمن سياسي، إذا عارضتَّ فكرَ أحدهم أدرجك ضُمن جماعةٍ بعينها، فانقسمنا لنوعين من الناس؛ نوع يُدرج الآخر ضُمن جماعة الإخوان، والنوع الأخر يُدرج الأول ضُمن مؤيدي السيسي، أدرجوا الفصيل السياسي الثاني نسبة لشخص وجعلوا منه قضية!، هذا حالنا السياسي الذي نعيشه.

عند وصولي للمنزل، صعدتُ لشقتنا فوجدتُ أمي كعاداتها تُصلي وتدعو لأخي وأبي، وبالطبع هي لا تنساني من دُعائها؛ فـ بالنسبة لأمي اعتقال أبي وأخي كان أسوأ من خبر موتهم، فأمي تُريد أن تستريح من عذاب وجودهم على قيد الحياة وهُم مُقيدي الحُرية؛ فأبي كان أكثر صمودا من أخي؛ أما أخي فكان الأكثر جزعًا وحزنًا وإحساسًا بالظلم والقهر، فقد دخل أخي في نوبة اعتراض، مُعلنًا أنهم إن لم يُفرجوا عنه فسوف يُضرب عن الطعام.

أمي دومًا كُنت أقرأ في عينيها حُزناً من عذاب أخي أكثر منه عن أبي، فكُنت عندما أذكُر أخي وحاله تبكي بكاءً حارًّا تعجز معه نفسي على مواساتها، أما بالنسبة لي حينها كنت أدعو الله دومًا أن يردُ لي أخي وأبي سالمين فما جريمتهما حتى يُعتقَلا هكذا؛ فهل أصبحت الحُرية جريمة حتى يُعتقل أبي وأخي، برغم أني لم أؤمن بقضية أبي أبدًا لأنها لا تُشبهني، ولكنني أؤمن بالحرية وأن كل مِنا له قضية لابُد أن يؤمن بحريتها.

دخلتُ حُجرتي وتركت خلفي أمي تحمل قضية أبي وأخي داخليًا، وظاهريًا تدعي بأنها قضيتها.

في وطني إذا تزوجت امرأة من رجُل يحمل قضية لابُد لها أن تنصاعُ رغمًا عنها لقضيته وتؤمن بها، حتى لو لم تكُن تلك القضية تشبهها، في تلك الليلة بعد دخولي لغرفتي، رن هاتفي وكانت "سارة" لكنني وجدتُ

في نبرة صوتها تغييرًا لم أعهده من قبل، فسألتها ما بكِ؟ فأجبتني:

- محتاجاكي.

شعرتُ بالقلق كثيرًا عليها فـ لأول مرة تقول لي "سارة" تلك الكلمة التي تحمل بداخلها كل معاني الألم والحزن وفقدان الأمان، كما أن "سارة" صديقتي القوية لن تقول تلك الكلمة إلا إذا أصابها مكروهٌ.

كلمة احتياج هي أكثر الكلمات التي تُخيفني، فكم احتجتُ لأناس في حياتي وفقدتهم بعد احتياجي لهم، وأكبر احتياج كان لك يا "أمجد" وأكبر فقدان كان أنت.

أكملتُ حديثي في الهاتف مع "سارة" وسألتها عما أصابها، ولكنها أخبرتني بأنها ستزورني صباحًا وستحكِ لي كل شيء، أغلقتُ معها الهاتف وأغلقت وراءه الأمل الذي كان يأتيني منها، فلقد رأيت شُعاع الأمل الذي كنت أستمده من صوتها قبل أن أراها، حتى انطفأ أمامي.

اتجهت وبيدي تلك الرواية وفتحتُ أحد أدراج مكتبي ووضعتُ به تلك الرواية، وعاهدت نفسي أن أتناسي أمر تلك الرواية نهائيًا، ولكن كثيرًا ما نتخذ قراراتٍ يسير المنطق عكسها وكأنه يُعاندنا.

مرَّ الليل بظلامه الدامس داخلي وأشرق الصباح بظلام آخر بداخلي، لم أستطع النوم من التفكير، ومن الألم، ومن الخوف، ومن الواقع، ومن المجهول، ومن مأساة أبي وأخي، ومن جزع أمي، ومن حالي كفتاة

صغيرة حملت كُل هذا الألم بداخلها، ومن انكسار صديقتي الذي لا أعلم له سببًا حتى الآن.

نهضتُ في ذلك الصباح الذي لا أمل فيه ولا نورا يُضئ ما بداخلي، فهناك صباحات تحمل بؤسًا وسوادًا أشد من ظلام الليل، وهناك ليلٌ يحمل نورًا وأملاً أكثر وضوحًا من نور الصباح، فقط يأتي هذا الليل عندما تنكشف الصعاب وتزول، وقد يطول هذا الصباح عندما يزداد الظلم ويكبُر.

في بعض الأحيان أكره عقلي لفلسفته المُفرطة في تفسيره لأموري ومُحاورتهُ لي. وجدت جرس منزلي يرن، فتثاقلت قدماي وأنا أتجه لأفتح الباب، فأنا أعلم من الطارق فهي صديقتي "سارة"، فأنا أخاف أن أصاب بفاجعةٍ أخرى، فقد اكتفيت بالفواجع في حياتي، ولا أريد أن أرى أحدًا ممن امتلكوا قلبي مُصابًا بسوء.

اتجهتُ للباب وفتحت فكانت "سارة" بالفعل، وجدتُها تتجه نحوي وتحتضني، كنت أشعر بدفء حضنها، وأسمع دقات قلبها المُتسارعة، كنت في ذلك الوقت في احتياجٍ لحضن، كُنت أحتاج لهذا الحُضن سواءً من أبي أو أمي أو أخي أو حتى طفل.

أذكُر بأنني قرأت يومًا عبارة تقول "احتضنوا أحبائكم كل يوم حضنًا حتى لا تُصابوا بوعكات القلب، ولتحافظوا على بقاء قلوبكم علي قيد

الحياة".

وجدتُ " سارة " تنهار بالبكاء داخل حضني لها، ولا تستطيع التحدث بأي كلمة من شدة البكاء، فأصابني الخوف أن تسمعها أمي وهي تبكي فاتجهت معها إلى غرفتي وأغلقت الباب وتركتها تُفرغ كل البكاء الذي في قلبها قبل عينيها، أما أنا فكنت في ذلك الحين لا استطيع البكاء فقد جف قلبي عن البكاء، وعجزت عيناي عن التعبير عن الألم الذي بداخلي.

أحيانًا شدة الألم بداخلنا على ما يُصيبنا تجعلنا كالأحجار في صمتها، كان قلبي ينزف ألمًا وعيناي لا تستطيعان أن تنزف دمعًا. تركتها تبكي كثيرًا دون انقطاع، وانقطع عقلي أنا عن التفكير في تلك اللحظة فيما يؤلمها، فقط كنت أنظر لها وهي تنزف ألمًا، ثم أعطيتها منديلاً لتوقف نزيف دمعها الذي سال علي وجنتيها، فياليتني كنت أستطيع أن أمحو هذا الأثر بدلاً من تلك المناديل التي دومًا ما تمحي أثار نزيف آلامنا وفواجعنا الكبرى، يا لقوة تلك الأوراق! تستطيع بكل تلك القوة والجراءة أن تمحو هذه الآثار وتُعيد هيئتنا كما كانت، قُلت لها:

- لن أسألك عما حدث يا "سارة" ولكنني أريد أن أعرف ماذا يؤلمك.

انتبهت لعينيها الباكيتين؛ فقد كانت عينان تحملان خوفًا وألمًا وحزنًا لم أعهده من قبل لتلك الفتاة، لم تُجبْني على سؤالي، فعُدت ووجهتُ لها السؤال ولكن بصيغة أخرى:

- أين موضع ألمك؟

ردت علي بكلمات بها حياة وجراءة برغم الألم الذي تحمله عيناها، قالت:

- حورية صديقتي، خلقنا الله ولم يُجبر أحدًا من خلقهِ على الإيمان، بل تركنا نختار ونتعقل وجوده بعقلنا أليس كذلك؟

أشَرت لها برأسي إيماءً بالموافقة على كلامها، ثم أكمَلت حديثها وقالت

- أوجد الله الديانات السماوية وأرسل الرُسل والأنبياء لمن يؤمن به ولم يُجبر أحدًا أيضًا على الانصياع لديانة مُعينة أو دينٍ مُعين أو رسول أو نبي مُعين، وفي دين الإسلام يقول الله للنبي محمد أن يقول للكُفار (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)....

ثم أكملت حديثها وأنا أستمع لها وقالت:

- إذًا لم يُجبر الله أحدًا من خلقهِ على دينٍ مُعين، ووهبنا نعمة الحُرية في اختيار الدين، لذا أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدً رسول الله وأؤمن بوجود كل الأديان، ولكنني أجد في الإسلام قضيتي الدينية التي أهداني عقلي إليها.

أنهت "سارة" حديثها الذي أصابني بالذهول وعجز لساني عن النطق بأية كلمة بعد كل الكلام الذي قالته، ثم شعرت للحظات قليلة بالفرحة

ليست فرحة تغييرها للعقيدة فقط، ولكنها فرحة بتلك الفتاة الحُرة في تفكيرها واختيارها.

من الأمور التي كانت تُسعدني أن أجد أحدهم وقد آمن بقضية أشار عليها عقله وحدهُ ولم ينصاع لقضايا غيره.

سردت لي "سارة" حينها تفاصيلَ كثيرة عن اعتناقها الإسلام، وكيف أنها كانت تُصلي سرًا لمدة شهر، وكيف أنها قرأت القرءان وحفظت منه بعض الأجزاء.

برأيي إن أفضل المُعتنقين للإسلام، هُم من آمنوا به عن اقتناع وليس بالتوارث، فالأفضل أن يبحث عقلك ثم يُصدق ثم يصل لمرحلة اليقين، وهذه أفضل درجات الإيمان بقضية ما.

ولكنني بكيت أثناء حديثها، فخوفي عليها كان أكبر من فرحتي بها، فلماذا نُحارب من أرادوا تغيير عقائدهم، إن الله منح الحرية لعقلنا في كل شيء، ودليلاً على تلك الحُرية أنه أوجد الجنة والنار والثواب والعقاب حتى يختار عقلنا ويدلنا على طريق الحق إن أوصلنا عقلنا لذلك الطريق، منحنا الجنة مكافأة، وإن ضللنا الطريق عاقبنا بالنار والعذاب، لذا عقلنا هو الوحيد المُتحكم في اختيارنا وليس التوارث، قضايا الدين وإيماننا بها لا تحتاج للتوارث تحتاج فقط للتعقُّل.

جميعنا نستطيع أن نتمرد على واقعنا، وعلى القضايا المُجبرين عليها

obeikan.com

سواءً قضايا دينية أو سياسية أو مهما كانت، ونرسم لأنفسنا واقعًا مُخالفًا لما صنعه لنا الآخرون.

أكملت بُكائي مع "سارة" الحُرة، فقد كانت دموعي فرحًا وخوفًا من المجهول ثم قُلت لها:

- لا يُمكنك إخبار أحد بما آمن به عقلك، عليكِ أن تعبُدي الله بقلبك؛ فالله رب قلوب، حتى لا تُصابين بالأذى إن علم أهلك أو وصل الأمر إلى الكنيسة.

فوجئت بها تقول لي:

- حورية، أنا أعلم ذلك، ولذلك أتيت لكِ لأنني سأهرب من المنزل وسيُساعدني "عمرو" على الهروب، وسنتزوج بعد أن يُنهي عامه الأخير في الجامعة.

توقف تفكيري لحظة واستعدت نفسي مما قالته وقلت لها:

- هل أجبرك الحب على الإسلام؟

أجبتني بكل ثقة

- الإسلام هو الذي أجبرني على الحب.

ثم أكملت حديثها:

- تعلمين صداقتي ل "عمرو الزيان" في الجامعة، فكنت له أختًا

obeikan.com

وصديقة وكان يهتم بي اهتمامًا كبيرًا، وعند مرحلة تفكيري في الإسلام، وعندما كنت أحادثه في الدين كان يتهرب من أسئلتي ويقول لي لا تُدخلي صداقتنا في شئون الدين، دعي الدين جانبًا، فكلٌ منا له دينه ولكن سبق إيماني بالإسلام حبي لعمرو، ولم يعلم بإسلامي إلا بعدما أعلنت له حبي، وأعلن هو الأخر حبه لي.

ثم أكملت وقالت:

- أنا لم أغير ديني من أجل أحد، ولم أكن لأفعل أبدًا،عقلي فقط هو ما دلني على الإسلام.

شعرتُ حينها بقوة عقلها في التحرر، وانتابني شعورٌ زاد علي فرحتي فرحةً إضافية واتجهت نحوها واحتضنتها وقُلت لها:

- سأساعدك بكل قوتي، ولن أجعل أحدًا يمسسك بسوءٍ.

قُلت لها:

- لا مزيدًا من البُكاء، دعي الأمور تجري كما كتبها الله؛ فأنتي عبدته الضعيفة وهو أرحم الراحمين، وسيكون كل شيء على ما يُرام.

أذن المؤذن بصلاة الظهر فوجدتها تطلب مني أن نتوضأ سويًا ونصلي وندعو الله أن يُساعدني ويُساعدها في ظروفنا تلك.

كانت تلك الصلاة معها أفضل الصلوات في حياتي؛ فكنت أشعر

بإيمانها يتغلغل من داخلها لداخلي، كان إيمانها صادقًا ونقيًا كنقاء السماءِ في ليلة صافية لم يُصبها غيوم.

أحيانًا الصلاة تُخرجني من عالمي لعالم روحاني، وأشعر بأنني أقبع في السموات بالقُرب من ربي وأشعر وكأن الملائكة تربُت على قلبي. الطريق إلى الله يبدأ بالتوبة، ثم تعقُبها صلاة مُتكاملة الخشوع، ثم تصل إلى اليقين، وما أن تصل إلى اليقين فقد وصلت لربك.

بعد أن أنهينا الصلاة اتجهت غير مُدركة لما أصابني، وفتحت درج مكتبي الذي وضعت فيه تلك الرواية، وكُنت أظن أنني لن أفتح ذلك الدرج أبدًا، لم أقرأها ولم أكن أنتوي قراءتها، فقد سبق لي قراءتها وحفظها عن ظهر قلب.

وجدتُ في أولى صفحاتها رقم هاتفك، وتحت رقم الهاتف جملة هزت كياني:

"أعرف أن تلك الأرقام الإحدى عشر ليست هي من ستجمعني بكِ ولكنه القدر الذي سيجمعني بكِ مرة أخرى"

أحيانًا يجمعك القدر بأناس وأشياء لم تكن تتخيل أن يكون هؤلاء الناس أو تلك الأشياء في حياتك يومًا.

وأثناء قراءتي لتلك الجملة انتبهت لصوت "سارة" تُخبرني بأنها ستُغادر؛ لأن "عمرو" ينتظرها أسفل المنزل بسيارته، ولكنني كنت لا

أعلم إلى أين تريد أن تذهب، فسألتها:

- أين قررتِ أن تذهبي؟

فقالت لي:

- قررت الهروب من المنزل ولكن لا أعرف إلى أين أذهب.

فكرتُ قليلاً، ثم قلت لها....

- سآتي معكِ، ونُفكر سويًا أين يمكن أن تختبئي.

ثم اتجهت لغُرفة أمي وأيقظتها وقلت لها بأنني سأذهب مع "سارة" لنشتري بعض الأشياء.

ارتديت ملابسي وذهبنا لنلحق بـ "عمرو"، وعند نزولي من المنزل ورؤيتي لعمرو بداخل السيارة، رأيت بعينيه عُمرًا جديدًا لـ "سارة" سيُضيف لها سنوات من السعادة، كانت عيناه تلمعان لمعة العُشاق.

كثيرًا ما يقولون إن سنوات السعادة في العُمر قليلة، ولكنني أقول إن سنوات السعادة في الحب تُعد عُمرًا كاملاً، أما بقية الأعوام فتُضاف لتلك الأعوام وكأنها ساعات أو دقائق أو ثوانٍ، أو بالأحرى لا تُضاف ولا تُحتسب، فقط احسبوا أعوام السعادة كأنها عمركم الحقيقي حتى لو كانت عامًا واحدًا.

شعرتُ بالطمأنينة على "سارة" عندما رأيت في عيني عمرو الصدق،

obeikan.com

برغم مخاوفي مما ستُقدم عليه، وأثناء وجودي معهم بالسيارة قولت لها:

- أعلم أن مستقبلك الدراسي سيضيع؛ فلن تستطيعين يا "سارة" الذهاب إلى الكلية بعد اليوم، أما أنت يا عمرو إذا كُشف أمر حبك وعلاقتك بـ "سارة" قبل إنهاءك هذا العام الدراسي، فسيضيع مستقبلك هو الآخر، لذا فعليك الذهاب إلى الكُلية كل يوم حتى لا يشُك أحد بأمرك، وكأنك لا تعلم بأمر اختفاء "سارة".

رد عمرو وقال:

- وأين ستختبئ "سارة"؟

فكرت قليلاً مُترددة، فأنا لم أمُر بمثل هذه الظروف من قبل، ولا أعرف ماذا علينا أن نفعل. ولكنني خطر في بالي "عم حسان".

"عم حسان" رجُل في السبعين، صديق لأبي، ويسكن في عشوائيات المقابر هو وابنته الأرملة التي توفي زوجها أثناء عمله في إحدى العقارات الجديدة، حيث سقط من الدور التاسع وخلَّف وراءه زوجة وأربعة أبناء؛ ولدان وبنتان، بدون أي معاش شهري للإنفاق على هؤلاء الأطفال، ولكن أبي لم يكن ينساهم من الصدقة حتى وهو داخل السجن، كان يسأل أمي عن إرسالها تلك النفقة شهريًا لهُم، فخطر في بالي أن نذهب لـ "عم حسان" ونطلب منه إيواء "سارة" عنده حتى

يُكمل "عمرو" دراسته، ثم يأخذ سارة ويسافرا إلى أمريكا للعمل مع عم "عمرو" هناك.

عندما وصلنا طلبت منهم الانتظار خارج المنزل، وأنني سأدخل أولاً وألتقي بعم حسان وأخبره بالأمر وأرسل لهم حتى يأتوا، دخلت إلى باب البيت وطرقت الباب ففتح لي طفل صغير.

هذا الطفل حفيد عم حسان من ابنته، فطلبت منه أن يُخبر عم حسان بأنني حوريه الشاذلي، دقائق وعاد الطفل وطلب مني الدخول.

دخلت إلى ذلك المنزل الصغير الذي يمكُث عم حسان في إحدى حجراته الصغيرة، وفي مقابل تلك الغرفة غرفة أخرى بها أريكة مُتهالكة وحظيرة صغيرة قديمة، وبجانب تلك الغرفة حمامًا صغيرًا.

فدار بذهني وأنا أدخل كيف لسارة المُدللة أن تعيش في تلك الظروف القاسية، ولكن طالما الأمر يتعلق بقضية العقل فلابُد أن يتحمل الجسد الصعاب.

دخلت إلى الغرفة التي يمكث بها عم حسان، كنت لم أره منذ سنوات طويلة عندما أخذني أبي لزيارته، وعندما رأيته لم أعرفه من ملامحهُ المُتباعدة والمُتهالكة من المرض، فقط عرفته من صوته ونبرته الحزينة، لا أعلم ما سبب نبرته الحزينة، هل المرض أم الفقر وحال ابنته الأرملة وأطفالها الصغار الجياع، اقتربت منه، وقلت له:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا عم حسان.

التفت ونظر لي نظرة كلها بؤس، ورد السلام ثم قال لي:

- كيف حالك ابنة الرجل الحر؟

فابتسمت له وأجبته بأن ابنة الحر ما زالت متماسكة برغم الصعاب، لم تُدهشنِ كلمة الرجل الحر التي ذكرها عم حسان، فهو يُحب أبي وقوته ولا يؤمن بقضيته السياسية، فليس غريبًا أن تحب شخصًا ولا تؤمن بقضيته، تمامًا كما سيحدث بيني وبينك يا "أمجد" أنا ابنة قضية الحب وأنت ابن قضية الوطن والحدود.

تحدثت مع عم حسان وأنا تمتلكني مشاعر مُختلطة بين حب وخوف؛ حب يذكرني بأجواء العائلة قبل أن تتشتت ويضيع أبي وأخي في الزحام، وخوف مما أقدم عليه لأول مرة في حياتي، فهل سأنجح في مساعدتي أحدهم لأول مرة، أم سأفشل وأضيف وجيعة كُبرى لقلبي ولأعز صديقاتي وأتسبب في أذيتها.

لم أعد أتحمل رؤية المزيد من المظلومين والمكلومين حولي، أنهيت حديثي مع عم حسان وما أسعدني حينها بأنه وافق بما طلبته منه، وبأن لا أحد سيعلم بوجود سارة في هذا المكان، وبأنهم سيهتمون بها ويرعونها لحين انتهاء مدة دراسة عمرو ويأخذها ليخرجا خارج البلاد.

obeikan.com

خرجت من عنده وذهبت لأخبر عمرو وسارة في السيارة بموافقة عم حسان، ثم ذهبت متجهه لعودتي للمنزل، أو بالأحرى كنت اتجه لعودتي لذلك القدر الذي ينتظرني.

كنت أشعر بأنني أضيف لنفسي إيمانا بقضية أخرى؛ وهي قضية الدين؛ فمساعدتي لسارة كانت إيمانا بقضية الحرية في اختيار الدين، فحتى وإن كان عكس الأمر ما حدث وكانت سارة مسلمة، وأرادت تغيير عقيدة الإسلام إلى أي ديانة أخرى، كنت سأؤمن أيضًا بحرية عقلها ولن ألومها.

فقط علينا أن نمنح عقولنا مساحة من التفكير والتدبر والتعقل في كل الأمور، وما أن يختار عقلنا أمرًا ما، علينا الانصياع له، فما يميزنا عن الحيوانات هو العقل، فإن لم نستخدمه ونتعقل ونتدبر كل أمور حياتنا وننصاع لما يدلنا عليه عقلنا فقد نتشابه مع تلك الحيوانات جملة وتفصيلاً.

كنت قد انتهيت من هذا الحمل الذي كان قد تثاقل على أكتافي وأضاف لهمومي همًا جديدًا، أو بالأحرى لم أنته؛ أنا فقط كنت في انتظار المجهول الذي قد يصيبها في أي وقت.

كنت في طريقي؛ أسابق القدر بخطوات أنفاسي وبأحلام جديدة أصابتني منذ وطئت عيني تلك الجملة التي تركتها لي يا أمجد، لا

أعلم لماذا كانت تتسارع أنفاسي هكذا، وما الذي أجبرني على تلاحق الأحلام في عقلي هكذا بعد تلك الجملة، كفيلم أسرده لنفسي مسرعة في وتيرة أحداثه.

وصلت إلى المنزل ولا أتذكر كم من الوقت استغرقت حتى أصل، فتلك الأحلام سرقت من عقلي الشعور بالوقت، أنا بالفعل كنت أتجه يومها إلى قدرٍ جديد ينتظرني، دخلتُ يومها إلى غرفتي مُسرعة وممسكة بتلك الرواية التي أوجدها القدر عنوة في حجرتي، ثم أمسكت هاتفي وأضفت الأحد عشرة رقمًا الذين تركتهم لي، وكأنك كنت تترك لي سيلا من الأرقام.

شعرت حينها بالأرقام تتناثر على هاتفي وشعرت بأنهم أرهقوني في كتابتهم على الهاتف، وكانت كل تلك الأحاسيس بسبب خوفي مما أقدم عليه لأول مرة.

كان هذا الخوف لأنني كنت لأول مرة في حياتي أتحدث لرجل دقَّ له قلبي، وكنت أنت الرجل الذي اختاره لي القدر، لا أعرف هل كان الخوف بسبب ذلك أم لأنني أخاف الأرقام وأتجنبها، أم لأن القدر سيفجعني بسبب تلك الأرقام، وجدتُ نفسي يومها أمسك الهاتف وهو يرن بيدي، وإذا بصوتك المعهود على قلبي، يقول:

- من معي؟.

obeikan.com

هذا الرد أصابني بالإحباط وتساءلت بداخلي، ترى هل هذا الرجل صاحب الحس المرهف والقلب النابض والنظرات الثاقبة، لمسة يده التي أصابتني بالزلزال العشقي، لم يعرفنِ من أنفاسي؟

وكدتُ أغلق الهاتف دون أن أنطق بكلمة، ثم فاجأتني بردك سريعًا:

- كنت أتوقع اتصالك ولكنك تأخرتِ كثيرًا، فقد كنت أنتظرك على نار، فأجبتك:

- هل تَملكك الانتظار؟

ثم ساد الصمت بيننا قليلاً وأكملت أنا حديثي فقلت لك:

- أنت رجل الأفعال الجريئة والوقت السريع فبالتأكيد تكره الانتظار.

وقبل أن أكمل حديثي أدهشتني بردك بكل جرأة وأنت تقول:

- إذًا امنحيني ما أحب.

فأجبتك بدهشة:

- عذرًا ماذا تقصد؟

فأجبتني بإجابة تحمل عواصف لغرور رجل وثقته في نفسه، فأنت تريدني أنا وعقلي وقلبي، بل تريدنا جميعا، وقلت:

- أعني امنحيني الفرصة لكي أراكِ سريعًا.

obeikan.com

وقبل أن أفكر أو أنطق، أكملت:

- لا داعي للتردد ولا الخوف ،غدًا سألقاكِ في العاشرة صباحًا/ ولن نحدد مكان ، فقط المكان هو من سيشير علينا ليحدد مصير ثاني لقاء لنا تمامًا كلقائنا الأول، الذي أشار علينا بدون أن نحدده، ولكنني غدًا سأنفرد بكِ دون أن يتدخل القدر في تفاصيل لقائنا.

كنت أستمع لك وعقلي وقلبي يُحادثانني قائلان لي لقد أتاكِ فيلسوفًا عاشقًا لترتيب اللغة وكلماتها مثلك، فهنيئًا لضياعك وضياعنا معك، وفجأة انتبهت لسرعتك في الحديث قائلاً:

- سأغلق الهاتف وأحدثك غدًا قبل موعد لقاءنا.

أغلقت الهاتف، وأغلقت معها عيني لأشعر بجمال هذا الإحساس الذي أصابني، فأجمل الأحاسيس لا نشعر بها إلا ونحن مغمضين أعيننا، فعندما نضحك بشدة نغمض أعيننا، وعندما نتذكر أمرًا جميلاً نغمض أعيننا.

مر ذلك اليوم ولا أتذكر كيف، أتذكر فقط أن الصباح عندما أشرقت شمسه كنت أنا في مرمى ذلك الإشراق، وكأن الشمس تهدف للإشراق على وجهي أنا فقط دون العالم كله، لا أعرف يومها لماذا كنت سعيدة هكذا؟ هل كانت تلك السعادة لفرط حزني سابقًا، فعندما أتاني الحظ حاملاً حبًا تشبثتُ بالسعادة كالأطفال المفتقدين للهو، إما أنني حينها

كنت أسعى خلف ذلك القارئ الذهبي ليُضيف لعالم أنوثتي سحرًا بثقافته وفلسفته المُفرطة تلك.

استيقظت يومها في السادسة صباحًا على غير عادتي، فقد استيقظت عيوني، أما قلبي فكان مُستيقظًا لم ينمْ، وفي التاسعة صباحًا رن هاتفي، أسرعت لأرد على ذلك القدر الذي يرن على هاتفي، وعندما وضعت الهاتف على أذني إذا بك تقول:

- كيف قضيتِ ساعات الصباح والمساء استعدادًا للقاء القمة بيننا.

فابتسمت بين نفسي وقلت لك:

- تماما مثلما قضيتها أنت

فساد الصمت قليلا ثم أكملت:

- سوف أراكِ بعد ساعة في شارع شهاب.

ثم أضفت قبل أن تغلق الهاتف

- لا تتأخري، أكره الانتظار.

كنت فقط أستمع لك دون أن أنطق بأية كلمة، ثم بعد ذلك استأذنت في إغلاق الهاتف وقلت:

- أراكِ على أفضل حال.

بعد أن أغلقت الهاتف معك لم أتحرك، أو أنظر لأي شيء، كنت فقط

obeikan.com

أنظر لخيالي الذي أراك فيه حُلمًا جديدًا صنع مني فتاة جديدة. ارتديت ملابسي ولم أتزين، فقط السعادة هي ما زينت ملامحي، ولا أدري ما الذي جعلني أتجه للمرآة وأنظر لعيني ثم أُزينها بالكحل، على الأرجح كنت أحاول محاولة فاشلة إخفاء عيوني، إخفاء فضائح الحب التي فاحت منها وكنت في تلك اللحظات قد تأكدت بأن هذا ما يسمونه الحب من أول نظرة.

اتجهت إلى ذلك الشارع منتظرة إياك أيها الظل الخفي، نعم كنت أطلق عليك الظل الخفي حينها، فأنت تمكُث بداخل قلبي، وظلك ينتظر بداخل عقلي، كنت قد انتظرتك حينها أقل من خمس دقائق، ولكنني كنت أشعر أن الوقت لا يمر.

رأيت سيارة قادمة نحوي، فأنا كنت لا أتذكر ملامحك جيدًا، أو حتى لم أكن أعرف هل تمتلك سيارة أم لا، وما نوع سيارتك. عند وقوف السيارة بجانبي أدركت أنه أنت من رائحتك التي هبَّت عليّ، فقد فاح عطر حبك بداخلي وأخبرني بأنك ذلك القدر القادم.

نزلت من سيارتك واتجهت نحوي بلهفة، كأنك تعرفني عمرًا كاملاً، وكنت أغيب عنك أعوامًا طويلة، في اتجاهك نحوي، ظننت بأنك ستسرق حضني مني، ولكنني فوجئت بك تسرق حضن يدي بين راحتي كفيك، وإذا بك تقبلها كملك يقبل ملكة في بلاط مملكة العشق، وفي حضرة عامة الشعب، فقد كان الناس من حولنا ولم تُعرهم اهتمامًا

فقط كنت في هذا العالم الذي أعيشه معك.

أنت في تلك اللحظات أدخلتني عالمًا جديدًا لم أعهده من قبل، كنت أعهد عالم الظلم والوجع والقتل والموت والسياسية، كان هذا اللقاء في بدايته لمسات، فماذا عن النظرات! فكنت في تلك اللحظات أنتظر نظراتك لي، وأنا بداخل دوامة العشق وجدت عيناك تلقى عيناي، فعيناك عواصف من العشق تصبّ على عيني لهفةً وشجنًا.

كان لجنون تلك اللحظات رائحةٌ كعبير الورد في بداية الربيع، لا أدري ما الذي أصابني حينها من نوبات العشق؛ فللعشق ثلاث نوبات للجنون مثلها مثل درجات السلم تصاعديا من الأولى للثالثة؛ أول نوبة أقلهم جنونًا، صعودًا بالثانية والثالثة، والأخيرة أصعبهم وأخطرهم جنونًا، فأنا وأنت كنا في النوبة الثالثة حينها، ولا أدري لمَ أصابتنا تلك النوبة، بالرغم أنه في تلك اللحظات لم نكن نعرف أسماء بعضنا البعض - حتى -.

صعدت للسيارة بعد أن فتحت لي بابها بكل ثقة وتماسك بقواعد الذوق العام التي أهملها كثيرٌ من رجالنا هذه الأيام، ظللت محافظًا على عادتك تلك لم تُخلفها مرة واحدة، فمنذ أول لقاء وأنا أدمنت كل عاداتك وأحاديثك وتصرفاتك وعيناك ولمساتك وضحكتك.

قدت بنا السيارة ولم أكن أعرف إلى أين نتجه، ولم نتحدث إطلاقًا،

ولم نذكُر أي شيء عن أنفسنا، فأنا لم أعرف اسمك أو عملك وأنت أيضًا، فجأة توقفت بالسيارة على كورنيش النيل وقلت لي سنجلس في إحدى المقاهي، فقلت:

- لماذا على كورنيش النيل بالتحديد؟

فابتسمت وأجبتني بكل ثقة وتماسك:

- السيارة قادتني لهذا المكان.

فابتسمت لحديثك وقلت:

- وأي من تلك المقاهي اختارها القدر للقائنا؟

فابتسمت بوجهك المشرق وعيناك الساحرتان وأجبتني:

- سيختار لنا القدر أفضل المقاهي عشقًا.

كان لوقع كلماتك سحرًا على قلبي، اتجهنا نحو أحد المقاهي ولا أدري كيف دخلنا، فقط كنت مستمتعة بالتجول معك على كورنيش النيل، ووجدنا أنفسنا نغير وجهتنا نحو ذلك المقهى، هذا الصرح العاطفي المُبهج الذي فاضت فيه لغة عاطفتنا المُفرطة، وكانت الشمس تعكس أشعتها على أعيننا التي تلمع عشقًا فتزداد بريقًا وشرارة التهاب الشوق بيننا.

عند جلوسنا في هذا المكان المليء بالضجيج الرومانسي، قرأت في

obeikan.com

مقاعده أثارًا لمشاعر سبقتنا بالجلوس، قرأتها بعيني كاتبة وقارئه لروايات الحب، فحدسي دلَّني أن هذا المكان وهذه المقاعد التي نجلس عليها أنا وأنت كانت تشعُ حبًا قبل وجودنا، فتحت لي المقعد مُحافظًا على عاداتك الدائمة في الذوق، ثم جاء النادل، فنظرت لي وسألتني فقلت لك سأتناول قهوة، ثم نظرت لي وقلت:

- أعلم أن الأنثى التي تتحمل مرارة القهوة تتحمل جيدًا خيبات الحياة.

كنت أستمع لك جيدًا، وأحاول أن أخبئ بداخلي كل الخيبات التي أصابتني وأتشبَّث بحلاوة لقاءنا، متناسيه كل ما مضى.

فأجبتك:

- أشعر بأن مرارة القهوة لن تزورني تلك المرة معك.

فوجدتك تندهش لما قلت، وأضاف حديثي لملامحك وضوحًا، وقلت:

- إذًا أضيفيني ك سكر لقهوتك.

كان لكلماتك وقع مُريب على عاطفتي، فدائما ما كانت كلماتك تُثير عاطفتي ووجداني. كنا نتناول قهوتنا وعينانا تتحدث، ثم قطعت أنا هذا الصمت المتزين بالجاذبية العاطفية، ووجهت لك سؤالا:

- كم عشت من السعادة؟

أجبتني سريعًا قائلاً : عشرون دقيقة.

فابتسمت لك وقلت:

- أعني كم عمرك الحقيقي؟

أجبتني بسرعة أكبر من سرعتك السابقة للسؤال السابق قائلا:

- عمري الحقيقي أحتسبه من وقت لقاءك.

فابتسمت أنا ابتسامة الانتصار على نفسي، فقد راهنت نفسي بأن هذا الغامض فيلسوفًا لغويًا يتلاعبُ باللغة أكثر من تلاعبه بعواطفي.

أحيانًا نصادف في حياتنا أناسًا مدهشون في أحاسيسهم، ولكنهم غير قادرين على التعبير عن ما بداخلهم في إناء اللغة، وأحيانًا أخرى نصادف أناسًا مدهشون في أحاديثهم وقادرون على الإقناع اللغوي بأقل الكلمات ولكنهم لا يحملون إحساسا صادقا بداخلهم.

وحدك يا أمجد جمعت بين صدق الإحساس، وبلاغة اللغة وكلماتها، في صمتك تتنافس الأحرف والكلمات حتى تخرج مُتزينة في قدرتك المريبة لترتيب كلمات اللغة وتزيينها في أبهى حالاتها، مدهشة هي اللغة في تكاملها حين يمتلكها أحدهم، مطعمةٌ بأجمل وأصدق الأحاسيس.

انتبهت لنفسي وأنا شاردة بداخلك، فقد تعمقت داخل فيلسوفً أشعر أنني أمتلكه وأنه يمتلكني، فقلت لك:

- حدثني عن قلبك.

كنت أتوقع ردًا سيغرق قلبي من الإثارة، ولكنني فوجئت بك تجيبني بكل ثقة وإصرار:

- سأحدثك عن فتاة خجولة الوجه جريئة اللغة وكلماتها سرقت قلبي من بين ضلوعي، من وقت معرفتي بها ووجدت لقلبي تاريخًا، فأحداثًا. وحكايات قلبي ستجري معها وحدها.

لم أعرف حينها لمَ تضايقت قليلاً؛ فأنا أريد أن أعرف من يحادثني وأريد أن أعرف أحداث قلبه السابقة، وفي أثناء شرودي وتفكيري رن هاتفك وإذا بك ترد على الهاتف مسرعًا وقائلاً لمن يحادثك

- سأكون بعد نصف الساعة عندكم.

ثم أشرت للنادل وكأنك لم تنتبه لوجودي أمامه طالبا منه الحساب، حدث ذلك ولا أتذكر كيف تمالكتُ نفسي أمامك، ولم أبد غضبي مما حدث، ومن ردة فعلك بعد هذا الهاتف.

ثم نهضت متجها نحوي ووضعت قبلة على يدي وقلت:

- سنذهب، وسأوصلك للمنزل لأنهم يحتاجونني في العمل.

نهضت أنا ولم أتحدث: ولكن بداخلي كان هناك غيرة وغضبًا من رد فعلك، وتساءلت بداخلي أحقا هناك مكان لشيء آخر بداخل قلبك

obeikan.com

غيري أصابك بكل تلك الأهمية لإنهاء اللقاء سريعًا، أهذا الشيء عملك حقًا أم امرأة أخرى أم صديق هام أم أمك أم أختك؛ فهل تراني كنت أغار حينها من أناس سبقوا وجودي بداخلك، وأصابني الشك من أن تكون رجلاً متزوجًا وأنا لا أدري، وأرعبتني فكرة أن أكون الرقم الثاني في حياتك، فدومًا أخاف الأرقام وترتيبها ولا أريد أن أكون رقمًا في حياة أحدهم، أنا أردت حينها أن أكون كل الأرقام، وبالفعل أنصفني القدر في هذا وجعلني كل الأرقام لديك.

خرجنا من المقهى في اتجاهنا للسيارة، ولاحظت على ملامحك القلق والتوتر فاقتطعت هذا التوتر بسؤال وقلت لك بكل عفوية:

- هل أنت متزوج؟

فوجئت بك تقف فجأة وأصابتك نوبة هيستيرية من الضحك، ثم قلت:

- أقسم أن كل النساء مجانين؛ والعاقلة الوحيدة فيكم أكثركم جنونًا. فغضبت لحديثك المُتهكم، ثم قبل أن أنطق بأية كلمة وجدتك تمسك يدي قائلاً:

- أقسم لكِ بأنني لا أملك إلا قلبًا واحدًا وهو لكِ وحدك.

ثم نظرت في ساعتك وأمسكت على يدي بقوة وقلت:

- سنركض إلى السيارة سويا.

فنظرتُ لك مبتسمة قائلة:

– أنت الآن المجنون الوحيد في هذا العالم، هل تريدنا أن نركض سويًا على كورنيش النيل أمام الناس، نحن في مدينة لا تخلو من النظرات والتهكمات.

فأمسكت على يدي بقوة أكبر وقلت:

– أنا مدينتك، وأنا صاحب كل النظرات وحدي، من يملك حق النظر لك مساءً وصباحًا وفي كل الأوقات.

نظرنا لبعضينا ثم انطلقنا راكضين سريعًا متجهين نحو السيارة، ثم ما أن وصلنا للسيارة وجدتك تقترب مني فاتحا لي باب السيارة قائلاً:

– ضاع عمري قبل أن أري تلك العينان الساحرتان.

وانطلقت مُسرعًا بالسيارة نحو منزلي، وكنت قد تناسيت غضبي منك، فأنت تملك القدرة على معالجة كل الأمور بكلماتك، وكان لك القدرة الأكبر على وضعي على حافة السعادة بعد ذلك اللقاء، فقط التقطتني من عالم الحزن لعالم السعادة في أيامي التي قضيتها معك.

عند وصولنا للمنزل، نزلت من السيارة واتجهت فاتحًا لي بابها، ثم مددت يدك لتسلم علي فمددت يدي أنا الأخرى لأسلم عليك فوجدتك تبتسم وتقول:

- أعرفك بنفسي أمجد عبد الحميد.

فوجدت نفسي أرد عليك وقلبي يعزف فرحًا بمعرفتي لأسمك:

- حورية الشاذلي.

لم تترك يدي ثم أضفت لسحرك اللغوي إثارة قائلا:

- الحب لا يسأل عن الأسماء والأعمار يا صغيرتي.

ثم ودعتني وذهبت، كنت في تلك اللحظات أشعر وكأنني طفلة في عمر صبية، كنت طفلة تلهو في ساحات العشاق. أوقفني عقلي للحديث معي فيما حدث في هذا اللقاء قائلا لي كيف تسمحين لرجل غريب عنكِ أن يُقبل يدكِ للمرة الثانية، فكنت أرد عليه بلسان قلبي قائلة بالتأكيد أسمح له، فمن اليوم لن أحرم اللمسات بيني وبينه، ثم أكمل عقلي حديثه وقال لي هو اعترف لك بأن له قلبا واحدا أنتي تمتلكينه، فمتى أحبك وهو لا يعرف هويتك؟.

أجاب قلبي تساؤل عقلي قائلاً له إنني أحببته منذ تلك النظرة في ذلك المول، ونظرته لي سبقت نظرتي له إذًا فهو من بدأ بالعشق وهو من بدأ أيضا الاعتراف، فأنا لا يعترني اهتمامًا أن أتعمق في هويته، فأنا أصبحت أمتلك قلبه.

*****

توقف عقلي عند هذه اللحظات داخل مُعتقلي ولا أدري هل تلك اللحظات كانت حقًا سعادة بالنسبة لي أم كانت طريقًا لألمي وحزني الأكبر الذي أعيشه الآن داخل تلك الزنزانة.

أمجد، يتهمني الوطن بأنني خائنة، ولوعدت أنت لاتهمت الوطن كله الذي سرق حضنك مني بأنه الخائن؛ خائن لقصة عشق لن تتكرر في هذا الزمن البائس وهذا الوطن الظالم، وطن سرق حضنك ودماءك غير مُبالٍ بما خَلفت وراءك من عاشقة أو أهل أو أصدقاء، تركت خلفك أحبة مصابون بفاجعة فقدانك.

في هذا المعتقل لا طعامًا يشبعني ولا شرابًا يرويني ولا هواءً يملأ جوفي، أختنق كل ليلة وأشعر بالجوع والعطش، ليس لسوء الخدمات فقط ولكن لسوء حالي على فقدانك، فأنت فقط من كان له القدرة على جعلي أشعر بالشبع والارتواء في وجودك.

يكفيني في وجودك بأنني كنت أشعر بأنني أتنفس هواء العالم كله بداخلي، كنت أشعر في وجودك بأن الكون بملذاته يقبع بداخلي. أمجد، إن الحياة أصبحت شاقه ولم أعد أحتمل روائح نفاق من حولي، فقد يكون الجميع مُدركين أنك تقبع بداخلي ولكنهم يصرون على اتهامي بالتسبب في رحيلك، وأنا الوحيدة المعنية بوجودك وأنا الوحيدة التي تهتم لحياتك أكثر من أي شخص أخر، فحتى والديك يُحبانك حبًا فطريا ومصابان بفاجعة فقدان ابنهما البطل، يُضمد جراحهما أنك

دفعت روحك ثمنًا لهذه الأرض.

يتذكراك فيبكيا رحيلك، ولكن تستمر الحياة معهما، يفخرا بروحك التي ضحيت بها لهذا الوطن، أما أنا فأغار من هذا الوطن لأنك أهديته حياتك ولم تهدني إياها لأمكُث فيها لآخر عمري.

تهمني حياتك لأنها كانت بالنسبة لي مسكنًا لوجودي بها؛ فقد أهداني الله بك ذات ليلة وظلمتني تلك الأرض بسرقة تلك الهدية الإلهية. سأظل أسرد قصتي معك لنا وحدنا، أنا وأنت وأعرف أن ما من شخص آخر سيقرؤها، لأنني لا أريد أن يلوث الآخرون ذكراك بأن يتهمك أحدهم بالخيانة لوطنك بالزواج من ابنة قيادي إخواني غير مُدركين بعظمة ما كان بيننا.

أنا وحدي المُدركة بعظمة ذلك الحب الذي نشأ بين الألغام وانتهى عندها، أو بالأحرى هو لم ينته بعد، هو ما زال مُمتدا بيني وبين روحك التي تقبع معي في تلك الزنزانة.

*****

أعود لأسرد ذكريات حزني وأتذكر تلك الليلة التي أخذت بقلبي إلى الهاوية.

كنت في تلك الليلة أبكي وأنا على سجادة الصلاة، وأدعو الله أن يفرج كرب أبي وأخي، ويربط على قلب أمي على فراقهما، ووسط صلاتي

تذكرتك؛ فدعوت الله أن يجمعني بك مرة أخرى، فقد مر شهر ولم تحاول الاتصال بي، وعندما حاولت مُهاتفتك لم تجب، كان حينها يقيني بصدقك معي كيقيني الآن بصدق حبك لي، ويقيني بأن القدر حنون على قلبي معك، وبأنه سيعيدك لي مثلما جمعني بك؛ لتعود لتضمد جراح قلبي من تلك الظروف القاسية التي أرهقتني، وأثناء شرودي وأنا على سجادتي رن هاتف المنزل، فلم أبالِ بمن يهاتفنا، فأنا وأمي نُعاني دومًا الوحدة منذ اعتقال أبي وأخي.

فالجميع يخاف الشبهات، فحتى أقاربنا انقطعت زياراتهم، فمنهم من كان له عذرٌ، فهم مصابون بفاجعة فقدان ذويهم أو اعتقالهم، ومنهم من لم يكن له عذرٌ ويخاف زيارتنا أو مُهاتفتنا؛ فتتهمه السلطات بخيانة الوطن مثلما اتهموا أبي وأخي، فكان هاتفي أو هاتف أمي لا يرن إلا قليلاً، وكنت أنا أهاتف صديقتي سارة فقط للاطمئنان على أحوالها في تلك المقابر.

وجدت أمي متجهه لترد على الهاتف وسمعتها تقول:

- كيف حدث ذلك، أنت تكذب.

ثم أطلقت صيحة عالية ووقعت مُغشيًا عليها، اتجهت مُسرعة وأمسكت سماعة الهاتف ووضعتها على أذني وأنا أتوقع فاجعة ولا أدري ما هي، وبالفعل كنت أستعد لفاجعةٍ أخذت بقلبي أنا وأمي وأبي للهاوية وغيرت

مسار الألم والحزن بداخلنا لمسار اليأس من الحياة، فلم نعد نكتفي بعد هذه الفاجعة بالألم فقط، أصبحنا مصابان باليأس والإحباط والجزع منذ تلك اللحظة.

كان من يُحادثني على الهاتف من إدارة سجن العقرب، وأخبرني بأن محمد أخي قد توفي صباح ذلك اليوم. أخذ ذلك الخبر بي إلى عالم التوهان، فلم أدر ماذا عساي أن أفعل حينها؟ حتى البكاء امتنع عن زيارتي في تلك اللحظات، كنت خائفة من أن أضع سماعة الهاتف، خائفة من الألم الذي سأعاني منه بعد وضعي سماعة الهاتف، خائفة أن أفقد أمي الفاقدة للوعي على الأرض.

أذكر شعوري حينها ومحاولتي لإفاقة أمي، كنت أخاف أن تفيق وتصاب بالجنون؛ وأصاب أنا بفقدانها نهائيًا ولكن في بعض الأحيان الجنون أفضل الأمراض التي يُهديها الله لنا.

فالجنون يجعلنا لا نشعر بخيبات القدر ولا بتقلبات الحياة ومآسيها. كانت تلك اللحظات من أصعب لحظات حياتي وأكثرها ألمًا على قلبي، لكنها لم تكن بحجم صعوبة الألم لفراقك.

كان الوقت لا يمر على قلبي ولا قلب أمي، فقد توقفت الساعات، وتوقف الزمن وأخذتني الحياة منذ ذلك اليوم نحو طريق الفقدان؛ في رحلتي لاستلام جُثمان أخي ومعي عمي الأكبر كنت لا أشعر بوجوده، وكأنني

openkan.com

ذاهبة بمفردي ومتحملة مسئولية استلام ذلك الجثمان وحدي.

كنت ذاهبة لاستلام جثة شاب في العشرينات، في تاريخ قد مَحا هذه الأعمار العشرينية من دفاتره، أضاف الوطن أعمار شبابه العشرينية لهؤلاء لعجائزه، فكم من خمسيني أو ستيني أو سبعيني العمر تقلد مناصب وامتلك أموالا وتمتع برفاهية الحياة على حساب العشريني البائس الذي لا عمل له ولا مستقبل ولا حقوق، فأي وطن هذا الذي لا يذكر في تاريخه أي عدالة اجتماعية تُذكر، فشبابه إن ضاعوا موتًا أقل ظُلمًا من أن يضيعوا فقرًا وقهرًا.

الشباب في وطني لا حياة له، فكم أكره تلك الأعمار الكبيرة التي عاشت في رغد الحياة ونعيمها بلا ألم أو حسرة مثلنا؛ وطني ظالم، لا أراه مُنصفًا لأحلام وطموح أبناءه.

أتذكر أنني كنت غير معنية بجثة أخي على قدر لهفتي لرؤية تلك الزنزانة التي خرجت روحه منها، كنت أريد أن أرى ذلك المكان الذي شَرُف بخروج روح أخي فيه، أحسد تلك الأماكن التي تشرف بخروج أحبائي فيها، وتنبض بدقات قلوبهم اللحظات الأخيرة وتتنفس هواهم، فمنذ ذلك الحين أصبحت تلك الزنزانة روضة لمن يقبع بها بعد أخي، فروح أخي بالتأكيد طهَّرت ذلك المكان مما يُمارس فيه من ظلم الحُكام وظلم الوطن.

أخي، موطني أنت فلا وطنٌ يسعُ وجودي سواك، وموطنك أنا فلا وطنٌ يسع وجودك سوى قلبي، وُلدت أنت في نفس اليوم الذي افتتح فيه سجن العقرب، وكأن هذا السجن أُنشئ من أجلك أنت، ليكون قبرك الآن، تاريخ موتك لم يأخذ بقلبي إلى الهاوية، تاريخ مولدك ومولد معتقلك هو الذي أخذ بقلبي إلى الهاوية، كنت أتمنى أن تُولد بعامٍ آخر ويوم آخر مُخالف لإنشاء ذلك المُعتقل.

رحلت يا أخي وخلفت وراءك أختا اختارها القدر لك، وسيعقُبك في الرحيل كل من أحبهم، لم أستطع أن أرى تلك الزنزانة التي صعدت بها روح أخي، فقد ذهبنا إلى المشرحة أنا وعمي لانتظار تشريح الجثة ثم استخراج تصريح الدفن.

انتظاري أمام المشرحة كان أشبه بشعور أنني أنتظر أن أُرمَى في الجحيم يوم القيامة، فلا أدري كيف سأستقبل جثة أخي؛ هل بالدموع أو الصراخ أو بالصدمة، أم أنني سأصاب بالعمى قبل رؤيتها، وقد تمنيت أن يُصيبني الله بالعمى حتى لا أرى جثته أمامي، احتبست أنفاسي بداخلي في تلك اللحظة من فرط حزني وألمي وجزعي.

جئنا للدنيا عابرون للآخرة، وفي عبورنا لا نمتلك سوى الأرض مرقدًا لأجسادنا، والسماء غطاءً لأرواحنا، وعند الموت لا نمتلك من تلك الأرض سوى شبرًا واحدًا نُدفن به، أو بالأحرى نحن لا نمتلكه، تلك المساحة التي سنقبع بها عند الممات هي التي ستمتلكنا، لأننا منها

وإليها سنعود.

مُخيفة تلك الحقيقة التي تخبرنا بها أرواحنا بأننا أجسادٌ فانية لا محالة. في تلك اللحظات وأنا أمام المشرحة شردت بأن ما تبقى من أخي هي روح، وبأن جسده سيُوارى تحت التراب، ولم يتبقَّ شيء من ملامحه وتكوينه، الشعور بالفناء جعلني أخبر نفسي بأنني مهما حملت من الألم والأحزان وتثاقلت على نفسي الخيبات سيأتي يوم وأرحل مع الراحلين، ولن يتبقى سوى روحي فقط، ويصبح لا وجود لجسدي، فلم كل الألم والمعاناةِ التي أجبر جسدي الفاني على مُعاناتها.

كنت في الحقيقة شاردة؛ أحاول التهوين على نفسي من الفاجعة التي أصابتني.

ظللنا منتظرين أمـام المشرحة ساعات طويلة؛ بـدأ فيها الكثير من الأصدقاء والأقـارب يتوافدون، ولا أعلم هل هم أرادوا المجيء لمساندتنا بهذه المحنة، أم أنه واجبٌ عليهم ولابد منه، ومهما كان سبب مجيئهم، فأنا لم أشعر بوجودهم ولا مواساتهم لي.

لحظات انتظاري لخروج الجثمان لم تكن أقل ألمًا من لحظات خروج الجثمان وأصدقائه يحملونه، كان أصدقائه الثلاثة يحملون جسد أخي وأنا أحمل روحه بداخلي، أصدقائه الذين حملوه لم يفارقوه أبدًا طوال حياته إلى أن تم اعتقاله، هم كانوا أكثر منه حظًا في عدم الاعتقال،

أو بالأحرى أنا لا أعلم، هل هم أكثر حظًا، أم أن السلطات تمهلهم وقتًا لتنقض عليهم كما ينقض الأسد على فريسته في الوقت المناسب.

أثناء حملهم للجثمان، كان أخي مُكفنًا بالأبيض وأنا مُتشحة بالسواد من خارجي وداخلي. مُريبٌ هو اللون الأبيض، نرتديه في الفرح طواعية، ويلبسوننا إياه جبرًا في الممات.

أنا دومًا أخشى كل الألوان لأنها تتزين معي في الفرح، ثم أُصاب بفاجعة كبرى وأنا مرتدية إياها؛ الأسود هو اللون الوحيد الصريح الذي يخبرني دومًا بالحقيقة، برغم الألم الذي يحمله بداخله إلا أنه لا يصدمني عندما تأتيني الفواجع، لأنه دومًا معي حاملاً الفواجع، دائمًا ما كانت تأتيني الفواجع وأنا مُتزينة بكل الألوان، فمذ عهدتُ الحزن أتتني كل الخيبات وأنا مرتديةٌ كل الألوان.

في المقابر وهم يوارون جسد أخي لمثواه الأخير، كنت أنظر أنا من بعيد مُتكحلة بالسواد في عيني التي لا تقدر على البكاء من فرط الألم، كنت أرتدي بداخلي رداء اليأس من الحياة، وأشعر بمرارة يغصُ بها حلقي عن الصراخ والعويل.

فكم كان أخي محظوظًا، فلا صُراخ ولا عويل ولا بكاء يُذكر من أصدقائه وأقاربنا والجميع، كنت أسمع أنينًا لا يُذكر في أرجاء المقابر، ولم تحضر أمي الجنازة، فكم هو محظوظٌ أخي في أولى الدقائق لدخوله

القبر، الجميع يدعوا له، ولا أحد يجعله يُعذب في الحساب بالصراخ أو العويل.

*****

أتوقف عن الكتابة في هذا المعتقل، وأبكي أخًا فاضت روحه غير مُبالٍ بمن تسبب بظلمه ورحيله، خلَّف وراءه أختًا أهلكها القدر، وأُمًا سبقتها في الهلاك، لولا أنها رحلت، لكانت هالكةً وماتت حزنًا عليه.

أتذكر تقرير الطب الشرعي عن سبب الوفاة فأضحك من فرط الظلم الذي لحق بأخي في حياته ومماته، كُتب في التقرير أن أخي توفي نتيجة لهبوطٍ حادٍ في الدورة الدموية، ولم يذكروا لماذا حدث هذا الهبوط أو ماذا جرى داخل المعتقل.

لأول مرة سأتجرأ على ذكر الحقيقة التي أخبرني بها أحد المُعتقلين مع أخي عندما ذهبت لزيارته بعد وفاة أخي بأسبوع، وكنت قد ذهبت بنفسي لأن حدسي دلني على أنه حدث شيء قبل وفاة أخي.

تلك الحقيقة التي لم أخبرك بها يوما يا أمجد، سأسردها لك على هذا الورق، فقد أخبرني صديقه في المعتقل بأن أخي محمد امتنع تمامًا عن الطعام ودخل في إضرابٍ مفتوح قبل وفاته بأسبوعين، وأن إدارة السجن لم تُكلف نفسها أو تهتم بهذا الأمر إطلاقا، حتى قبل وفاة محمد بيوم، جاء أحد الضباط من خارج إدارة السجن، ويبدو أن

وزارة الداخلية أرسلته للنظر في أمر المُعتقلين المُضربين عن الطعام ومعرفة مطالبهم، وقد قام هذا الضابط بإهانة أخي إهانة لفظيه ولكنه لم يمسه أو يحاول ضربه، هو فقط أهانه إهانة جارحه لشاب في سنه، فأسرها أخي في نفسه وشعر بالقهر وقلة الحيلة، وفي اليوم التالي حاولوا إيقاظه ولكنهم وجدوه متوفيًا.

تلك القصة التي حكاها لي صديقه في المُعتقل لم أخبرها لأحدٍ إطلاقًا ولا حتى أنت يا أمجد، فقط أردت ألا يقول الناس بأن أخي مات قهرًا من أحدهم، أردت أن يظل أخي مرفوع الرأس في مماته كما كان في حياته، فهكذا علمني أبي وأخبرنا أنه مهما كلفنا الأمر علينا أن نصبح دومًا أقوياء أعزاء النفس لا نُهان ولا نُذل، تماما يا أمجد مثلما أحافظ على قصتي معك، خوفًا بأن يذكرك أحدهم بسوءٍ عن جهل منه، غير مُدرك لعظمة ما بيننا.

أتذكر مرور شهر على وفاة أخي، وقد كان من أصعب الشهور في حياتي كلها، وكانت أمي لا تكُف عن البكاء والصلاة والدعاء، وكنت أنا لا أكف عن مواساتها، وتضميد جراح قلبها المكلوم على أخي، كنت أشعر بأن حزن أمي يكبُر ولا يقل، فغير حقيقي ما يتردد عن أن الحزن يولد كبيرًا ويموت صغيرًا، فأمي أثبتت لي عكس ذلك.

حزن أمي زاد الوجيعة بداخلي، وأفقدني القدرة على التحكم بعقلي، فكنت حينها لا أقدر على التفكير أو الشرود أو التمني أو الحلم، توقف

عقلي عن كل شيء، ولم تكُف روحي عن البكاء الصامت بداخلي، كنت أتمني أن تزورني الدموع لتخفف من وجعي.

إن أصعب أنواع البكاء بكاء الروح؛ فهو بكاء لا دموع فيه ولا أنين، بكاء يبكيه القلب وتبكيه النفس، أصابني خلال ذلك الشهر الهزل، وأصبحت لا أعرف نفسي عند النظر للمرآة. كنت أشبه فتاة أخرى لا أعرفها؛ فتاة أهلكها الحزن، مُصابة برحيل أخي وجزع أمي وأبي أيضًا.

أما أنت يا أمجد، لم أكن في ذلك الحين أتذكرك، كنت قد أصبت بفقدان الذكريات التي سبقت رحيل محمد، ولم أعد أكترث لقلبي ولا لأحاسيسه، فقد مر شهران حينها منذ آخر لقاء بيننا، لم أشعر بلذته وجماله مثلما شعرت حين التقينا.

كنت في تلك اللحظات لا تزور خاطرتي ولو حتى بلمحات عابرة في شريط المآسي الذي يمر بي كل ليلة. كنت في ذلك اليوم مُستلقية على سريري وقلبي مُستلقٍ في عالم الأحزان، وعقلي قابعًا في عالم التوهان، ففوجئت بهاتفي يدق فأمسكت الهاتف لأجيب على المتصل دون النظر لاسمه على الهاتف، وعندما أجبت فإذا بصوتك الذي عاهدته من قبل، ولكنني في تلك المرة لم أعهد قوته ووقعه على قلبي، كان صوتك يحمل خشونة تكسر كبرياء أنوثتي إذا حاولت التحرر منك، ويحمل دفئًا يُجبرني على الانصياع لذلك الشلال المُتدفق من الحنين.

فوجئت بك تقول:

- كم ضاع من عمرك بدوني؟

للحظات قليلة ولأول مرة أكره فلسفتك المُفرطة تلك، وتمنيت أن أقول لك:

- كم أحتاج إليك!

ولكنني أسررْت في نفسي ذلك الإحساس ولم أتحدث بأية كلمة، فوجدتك تقول لي سأعيد السؤال عليكِ:

- كم نقص من عمرك بدوني؟

وجدت نفسي تهرب منها الكلمات، وتهرب منها حتى الأسئلة والإجابات، وتختبئ الكلمات والأحرف بداخلي غير مُدركة لحالة الارتباك التي أصابتني، فبماذا أجيبك أو بماذا أسألك، هل أقول لك لماذا غبت عني كل تلك الأيام والليالي، أم أقول لك لماذا تركتني وحيدة أعاني الحزن، أم أكشف لك عن قلبي عاريًا أمامك لترى كل تلك الجروح والمآسي التي بداخله، وجدتك تقطع شرودي وهذا الصمت وتقول:

- عاتبيني ثم عاقبيني ثم اقتليني على غيابي عنك كل تلك الأيام السابقة.

أجبتك قائلة:

obeikan.com

– لن أعاتبك ولا أملك عقابك ولا أقدر على قتلك، فقط ضمد جراحي مما عانيت في غيابك.

أجبتني بكلام ساحر:

– كيف لمن تربعت على عرش قلبي أن تُصاب بجراحٍ في قلبها، فهلاكًا لنفسي إن كانت السبب.

شعرتُ حينها بالرغبة في البكاء، وكدت أصرخ من فرط ألمي وحزني، لا أعلم لماذا أصابني هذا الشعور المُفاجئ، هل لأننا لا نستطيع البُكاء إلا مع من نحبهم حقًا. وجدت نفسي أقول:

– أمجد، أهلكني الحزن والجزع.

رددت قائلا:

– أهلكني غيابك والتهمني الوطن منك.

لم أنتبه لكلمة الوطن فالجميع أصبح يتصارع في التفاني في حب الوطن والدفاع عن قضيته الخاصة، فأنا لم يعترني اهتماما حينها أن أعرف لأي فكرٍ سياسي تنتمي.

قطعت ذلك الحديث بقولي:

– أمجد، أريد أن أراك الآن!

لا أعرف لماذا قلت هذا وما الذي انتابني حينها، أجبتني مُسرعًا:

– بعد أقل من نصف الساعة سأكون عندك.

أمجد، أذكر أن ذلك اللقاء كان بداية الطريق لتغيير خارطة جسدي وقلبي معك.

مر أقل من نصف ساعة كنت أستعد فيها للذهاب لمُلاقاتك، وكنت أرتدي ثوبي الأسود داخليًا وخارجيًا، مُسرعة في ارتدائه ومتلهفة للقائك، داخليًا أرهقني العتاب الذي راودتني نفسي به وأنا أرتدي ملابسي لمُلاقاتك، وطلبت من نفسي أن تستعد فقط لهذا اللقاء الذي سيضمد جراح نفسي.

عند انتهائي من ارتداء الملابس وجدتك تدق الهاتف فأجبت، فإذا بك تخبرني بأنك تنتظرني أسفل المنزل، أسرعت في الهبوط إليك وكنت أشعر بأن هبوطي لدرجات السُلم كان بمثابة صعود لبادرة أمل.

ليس كل الهبوط الذي نمر به في حياتنا ضياعً لأحلامنا وطموحنا، فقد كان هبوطي من المنزل لمُلاقاتك بداية لأمل كبيرٍ في رجل سيعوضني عن تلك الجراح التي أصابتني.

عند وصولي للسيارة، وجدتك تفتح لي بابُها كعادتك، ولكنني هذه المرة شعرت بأنك تفتح لي باب الأمل لتلك الحياة، فكان وجودي معك في حد ذاته أملاً لي ولنفسي، كنت أجلس بجانبك في ذلك المقعد يفصلني عنك مقعدًا واحدًا، ولكنني كنت أشعر بأنك داخلي، ولا يفصلني عنك

أماكن ولا مقاعد ولا هذا العالم الخارجي بما فيه من زحام وسيارات وأناس وباعة ومارة.

كنت قد كرهت وجود هذا العالم حولي، فكنت أشعر بالضيق عند تجولي وحدي في شوارع تلك المدينة التي تكتظ بالضوضاء وتشع فقرًا وظلمًا، كنت أشتم في بعض شوارعها روائح النفاق والكذب، وبعض الشوارع الأخرى رائحة الفقر والظلم، وهناك شوارع لا رائحة فيها، فتلك الروائح لا توجد إلا في مدينة الظُلم فقط.

وحدك أنت الصادق في تلك المدينة بحُبك لي، فحبك كان له رائحةٌ وطعمٌ لم ولن أعهدهما أبدًا. كان حديثك معي في هذا اللقاء كحديث أثرياء الحب.

للحب نوعان من البشر يملكونه، النوع الأول وهم الصادقون مثلك، يمتلكون ثروة من المشاعر والأحاسيس ويكونوا كرماءً في عطاءهم لتلك الثروة التي يمتلكونها، أما النوع الثاني كاذبون ولا يمتلكون أقل الأحاسيس والمشاعر، وحتى وإن امتلكوا القليل منها فلن يعطوا أحبائهم ولو مثقال ذرة من تلك الثروة، فأولئك هم فقراء الحب.

عاهدني صوتك وأنا بجانبك في سيارتك، كنغمات موسيقية متناسقة وأنت تقول:

- اغفري لي غيابي عنك يا صاحبة الرداء الأسود.

obeikan.com

ابتسمت خفية وقلت:

- اغفر لي حزني الذي أتكحل به داخليًا وخارجيًا.

نظرت لي نظرة تحمل اشتياقًا وشجنًا وقلت:

- لمِ تتشحين بالسواد في نظرتك لي؟

لم أستطع الرد على سؤالك، أو بالأحرى لم أفهم مغزى السؤال، فلم أدرِ، هل كنت تعني أنك تريد أن أنظر لك بعشقٍ برغم الحزن الذي أصابني، أم أنك كنت لا تريد أن ترى الحزن يتغلغل لعيوني التي تعشقها، لم أجب على سؤالك وشعرت بالغيرة للحظات حينما رأيتك تُخرج سيجارتك وتشعلها، فهل لتلك السيجارة حظًا أكبر مني أن تلمسها يدك قبلي، فوجهت لك سؤالاً يحمل بداخله جرأة لم أعهد بها نفسي من قبل:

- هل غيابك عني كل تلك المُدة حَرَمَ عليك اللمسات؟

فوجدتك تبتسم وترمي بسيجارتك من نافذة السيارة، ثم أوقفت السيارة فجأة واستدرت ونظرت لي قائلاً:

- كلا أنا من سيحرم الغياب عنك مرة أخرى.

وأمسكت بيدي وقبلتها قبلةً عاهدتك بها من قبل عندما كنا في المول في أول لقاء بيننا.

وجدت نفسي بعد تلك القبلة أرتمي في حضنك غير مُنتبهة لمن حولي

خارج السيارة من أُناس، وفجأة انفجرت ينابيع دموع مني، وأنا بداخل حضنك الدافئ، لا أتذكر كم من الوقت ظللت أبكي، ولكنني انتبهت وأنا أبكي أنك تحركت بسيارتك وأوقفت السيارة أمام إحدى الفيلات وأبعدتني عن حضنك برفق وطلبت مني النزول.

ثم اتجهت فاتحًا لي باب السيارة فخرجت وقد قطعتُ بكائي لأتفقد ماذا يدور في بالك وماذا أنت بفاعل، حتى إنك لم تسألني حينها لماذا أبكي، وجاء حارس الفيلا مُسرعًا وأخذ السيارة إلى جراج الفيلا، ثم اتجهتُ أنا وأنت إلى باب الفيلا وأنا واضعة يدي في يدك، وفتحت الباب ودخلنا، حينها كانت قدماي وقلبي يتبعانك، أما عقلي فقد غاب أو بالأحرى توقف عن التفكير فيما أفعله من دخولي مع رجل فيلتهُ. حينها لم يُصبنِ الارتباك أو القلق منك، كان قلبي يثق في أنفاسك قبل خطواتك.

كان منزلك جميلاً ومرتبًا مثلك تمامًا، أعجبني اختيارك للأثاث واختيارك للديكور الذي يكشف عن رجلٌ مِذواق في اختياره للأشياء وترتيبها، من المُحال أن نجد شخصًا قادرًا على ترتيب الأشياء في الواقع كما يرتب الأمور بداخله، فالرجال فوضويون في مشاعرهم وفي ترتيبهم للأشياء.

جلستُ على إحدى الأرائِك وكنت مُتعبة من البُكاء، ثم قلت:

- هل ستتناولين القهوة كعادتك؟

فأشرت برأسي بالموافقة، واتجهت أنت لإعداد القهوة لنا سويًا، وتملكني أنا فضولٌ لأعرف حقيقتك من خلال ما تقرأ. فوجدت لديك مكتبة مليئة بالكنوز المعرفية والأدبية والسياسية، وأثناء تعمقي في معرفة حقيقتك انتبهتُ لوجود بذلة عسكرية فانتابني الارتباك وشعرتُ بالرهبة أن يصدمني القدر بطبيعة عملك فأجدك تعمل ضابطًا، ثم وجدتك تدخل بأكواب القهوة وأنا شاردة ومصابة بالصدمة، فوجهت لك تساؤلاً

- أمجد، ماذا تعمل؟

فأجبتني بمباغتةٍ:

- ماذا تريدنني أن أعمل؟

فشعرت بتهكُّمك وكان الأمر بالنسبة لي جادًا وضروريا، وسيحدد مصير تلك العلاقة، فقلت لك:

- أنا أتحدث جديًا يا أمجد، أخبرني الآن ما عملك؟

فأجبتني قائلاً:

- هل يهُمك عملي أكثر من حبك لي؟

فنظرتُ لك نظرة تحمل خيبة جديدة أصابتني، وقلت لك:

obeikan.com

- أنت لا تعلم شيئًا عني!

وجدتك تقترب مني قائلاً:

- أعلم بأن فُراق أخيكِ أهلكِ كثيرًا.

أصابتني الصدمة حينها، فكيف لك أن تعرف بفراق أخي، وأنت حتى لم تكن تُحادثني منذ شهرين. ثم اقتربت مني محاولاً جذبي نحوك ولكنني حاولت الإفلات منك، ولكنك أصريّت على احتضاني، ثم توقفت أنا عن المقاومة ووجدتك تقول:

- هل تقبلين بي زوجًا لكي؟

أصابني الارتباك من كل النواحي بداخلي وخارجي وأصابتني رعشة بأعصابي: وأصبحتُ غير قادرة على الوقوف، لولا حضنك الذي التهمني واحتواني لكنت سقطت على الأرض، فجأة أصابني الرعب من فكرة أن تكون ضابطًا، فقلت لك:

- أمجد، أخبرني ماذا تعمل!

أجبتني بغضب يعلو وجنتيك:

- للمرة الثانية، هل يهُمك عملي أكثر من حبي ومن الزواج بي؟؟

أجبتك بغضبٍ قائلة:

- هل تعلم كل شيء عني؟

obeikan.com

فأجبتني بثقة:

- نعم، أعلم كل شيء عنكِ.

أدهشني أكثر ما قُلت، فكيف عرفت كل شيء عني، وبإصرار أنثى وعنادها قلتُ:

- أمجد، تساورني شكوكٌ بأنك تعمل ضابطًا، فهل هذا صحيح؟

أجبتني بكل ثقة وغرور:

- بلى، صحيح.

حينها صرخت بداخلي قائلة لنفسي:

- يا لهذا القدر اللعين الذي يتلاعب بي، وتحكم عقلي بي في هذه اللحظات ثم قلت:

- أمجد، مُحال أن نتزوج أنا وأنت.

فوجئت بك تمسك بي بعنفٍ قائلاً:

- لا محال معي، فأنتي أصبحتِ ملكي من اليوم ولن أجعلك تنسابين من حياتي، فمنذُ شهرين، منذ ذلك اللقاء وأنا علي الحدود في عملي لا أفكر إلا بكِ، وعند عودتي عكفت على جمع كل المعلومات عنكِ، وقررت بداخلي بعد معرفة كل شيء عنكِ أن أخطفك من بيتك إلى بيتي هذا في الحلال، فأنا لا يهُمني كل تلك الحماقات التي صنعها المجتمع، فلا

obeikan.com

يعنيني أنكِ ابنة أحد قيادات الإخوان المعتقلين، ما يعنيني هو أنتي فقط.

ثم أكملت جملة أثارت أنوثتي وأذابتني، قلت:

- حورية، أنا أشتهى وجودك في حياتي.

أجبتك والدموع تحتبس بداخلي:

- ولكن يا أمجد، لن يوافق أبي وأمي، ولا حتى أبيك وأمك على تلك الزيجةُ إطلاقًا، ولن يتقبلنا المجتمع أحبابًا ولا أزواجًا، وإن تمردت على ذلك الوطن وأعلنت حُبك وزواجك مني، سيعلنك الوطن خائنًا، فقط لزواجك من ابنة قيادي إخواني.

كنت أتحدث، وتصر أنت على الإمساك بي بعنفٍ، ولم يؤلمني ضمك لي لحضنك، ما كان يؤلمني أن الوطن سيحرمني منك بسبب أحكامه، والمجتمع سيرفض ذلك الزواج.

فقلت لي:

- حورية، الوطن لا يحرم صغاره، أنا لن أكون خائنًا للوطن إن تزوجتك، ولكنني سأكون خائنًا لكِ إن فضلت الوطن والمجتمع عليكِ ثم أكملت قائلاً:

- أنا لم أتخذ قرارًا بالزواج منكِ عن جهل، فأنا عندما عرفت عنكِ كل

obeikan.com

شيء، عاهدت نفسي علي عدم تركك أو التخلي عنك، فالحب لا يسأل عن التوجه السياسي ولا الديني، ولا يسأل عن الأعمار، ولا يسأل عن الأسماء، ولا عن المكان ولا الزمان، الحب يتسلل إلى الأرواح، غير مبالٍ بأي شيء آخر.

نظرت لك وكنت حينها مُصابة بالإحباط، وقد امتنع عقلي عن التفكير وحاولت أن أفلت نفسي من بين أحضانك، فسألتني:

- هل يؤلمك حضني؟

أجبتك:

- يؤلمني القدر وخيباته.

ولم تتركنِ أو تفلتني من بين يديك وكأنك تخاف أن تفلتني وأضيع منك للأبد.

مر قليل من الوقت وطلبت منك أن تتركني وتدعني أذهب ولكنك أصريت على أن أمكث معك، كنت حينها مُصابة بشلل في تفكيري وغير قادرة على اتخاذ أي قرار، وفي هذه الأثناء كانت قهوتنا على الطاولة قد بردت.

كانت تلك القهوة أبرد ما في المكان، فأنا وأنت كنا نغلي من تناثُر مشاعرنا وأحاسيسنا بداخلنا، ومن سوء حظنا سويًّا.

obeikan.com

ثم أمسكت بيدي وقلت:

- دعي نفسك لي ولا تسأليننني ماذا أفعل.

ودون أن أدرى قلت لك:

- نعم، سأفعل.

ثم أخذت بيدي واتجهنا خارج الفيلا وطلبت من الحارس إخراج سيارتك من الجراج ولم تتحدث معي أو تنطق بكلمة واتجهت مُسرعًا بالسيارة، ثم توقفت أمام إحدى محلات المجوهرات، ثم نظرت لي فكدت أن أوجه سؤالاً لك، لولا أنك سبقت لساني وقلت:

- أعرف ما يدور بداخلك، أنتي ليس لك الحق في الموافقة أو الرفض على الزواج مني، أنتي أصبحتِ ملكي، وجئنا لمحل المجوهرات كي تختاري خاتم الارتباط الأبدي بيننا، رغم أن كل كنوز ومجوهرات العالم لن تكفي لتُقدر هذا الحب بيننا في خاتم.

لا أقدر على وصف إحساسي في تلك اللحظات ببعض الكلمات، فحقًا هناك أحاسيسٌ لا يُمكن وصفها أبدًا بأية لغة من لغات العالم. كنت أدخل معك إلى محل المجوهرات وأنا أمشي على استحياءٍ، وأحمل بداخلي مشاعر مُضطربة بين خوفٍ وفرحة، كنت أمسك بيدك كطفلة تدخل إلى أحد محال لعب الأطفال لتحقق حُلم طفولتها البريئة في لعبة، كان شعوري في الحب كذلك الشعور لدى طفلة.

obeikan.com

فأنا مُتجهة معك لأحقق أحلام حُبي معك بخاتم الارتباط. كان حينها الخجل يعلو وجنتي، والخوف يمتلك قلبي والنظرات تهرب من عيني، أما أنت فكنتَ رافعا هامتك غير خجول ولا مُرتبك، كنت واثقا كأب يأخذ بيد طفلته من عالم الأحلام لعالم الواقع.

جلست في ذلك المحل المليء بالحُلي والجواهر وكأنني أميرة تعيش داخل أسطورة مع أميرها، ثم أخرج لنا صاحب المحل مجموعة من الخواتم الألماس وأشكالها جميعًا تخطف الأنفاس من جمالها.

ثم سألتني:

- أيًا منهم تختارين؟

فترددتُ قليلاً ولم ينتبه عقلي لأجملهم فقلت:

- اختر أنت.

فقلت أنت لصاحب المحل:

- اختر لنا أثمنهم سعرًا.

فأخرج الرجل أحدهم وكان رائعًا، ثم أمسكت بيدي وألبستني إياه فبدت يدي كنجمةٍ مُضيئةٍ في جسدي.

أحيانا خاتم الارتباط لدى بعض النساء كنز تمتلكنه مهما كان سعره، فقط هو كنز لديهن لأنهن يرتّدنه لرجال حقيقيين، ونفس خاتم

obeikan.com

الارتباط حتى وإن زاد سعره، قلت قيمته لدى بعض النساء لأنهن يرتدْنه لأنصاف رجال. حقيقة امتلاك امرأة لرجل كامل، هي الكنز الذي تمتلكه في حياتها.

خرجنا من محل المجوهرات وأنا أرتدي هذا الخاتم الثمين وليس غلاؤه في سعره فقط، ولكن غلاءه عندي كان يكمُن في امتلاكي لك، أنت الرجل الذي أهديتني إياه، أغلى ما لدي في الحياة.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثالث

obeikan.com

obeikan.com

بعد خروجنا استقلينا السيارة ولم تتحدث معي، واتجهت بنا في طريق منزلي، لم أعرف حينها ما كان يدور ببالك، ثم وقبل أن نصل إلى المنزل نظرت إلي وقلت:

- ماذا تحب أمك من الحلوى؟

فنظرت لك وأنا أنظر لرجلٌ مجنون الأفعال لم أعهده من قبل وقلت لك:

- أمجد، أنت أصبحت تتصرف بجنون.

ولكن كلامي لم يؤثر بك أو يُغير ما كنت تخطط له، واتجهت بنا إلى أحد محال الحلوى، واشتريت قطعًا من الحلوى لتهديها لأمي وكان شراؤك لقطع الحلوى ليس حفاظًا على عادتنا في دخول الضيف على من يزورهم ببعض الحلويات، ولكنها كانت إضافة لذوقك الذي ظللت مُحافظًا على كل قواعده معي.

عند وصولنا للمنزل فتحت لي باب السيارة وصعدنا للمنزل سويًا ولكنني أصابني القلق ونحن ندخل سويا منزلي، أصابني القلق من

obeikan.com

نظرات الناس الذين يقطنون الحي، فهم يعلمون أن أبي معتقل وأخي توفاه الله، فنظراتهم لي كانت تقول من هذا الرجل الغريب الذي ذهبتِ معه ورجعتِ معه وسيصعد معها للمنزل الآن!، كنت أنا المُصابة بالخوف والقلق والتوتر، أما أنت فكنت غير مبالي بتصرفاتك.

عند وصولنا لباب الشقة، وقبل دخولنا، لم أكن أدرى بماذا أخبر أمي عن أمجد، أو ماذا أقول لها عنه، ولماذا جاء معي للمنزل أو ما هذا الخاتم الذي أرتديه، فحتمًا ستغضب هي مني، وسأزيد من حالها سوءًا.

فتحتُ باب الشقة وكنت أنا في المُقدمة وأنت من خلفي، فوجدت أمي كعادتها جالسة على سجادة الصلاة، وكانت قد أنهت صلاتها ويبدو عليها أثار بُكاء، فألقيت عليها السلام فردت علي بالمثل، ثم نظرت لي أنا وأنت ووجهت لي السؤال:

- من معكِ يا حورية؟

فأصابتني الرهبة والارتباك وترددت قليلا، فاتجهت أنت نحو أمي وجلست بجانبها أرضًا، وقلت لها:

- أنا ابنك الثاني، أمجد يا أمي.

فنظرت لي أمي، وطلبت مني أن أغلق باب الشقة الذي تركناه مفتوحًا خلفنا. ثم وجدتك تقول لها:

obeikan.com

- أمي تحب الحلويات، لذا قلت أن أمي الأخرى؛ وهي أنتِ بالتأكيد أيضا تحب الحلويات، فأحضرت لك بعض الحلويات معي.

ثم مددت يدك بعلبة الحلوى وقدمتها لها، مدت أمي يدها وأخذت منك الحلوى وهي مُبتسمة، فليس غريبًا أن تسحر أمي بكلماتك تمامًا مثلما سحرتني بعينيك قبل لغة حبك.

ساد الصمتُ للحظات، ووجدتك تقول لأمي:

- أطلب الحلال في حورية يا أمي!

أصابتني الدهشة من جرأتك ومما أقدمت عليه، أعرف أنك أقدمت على تلك التصرفات والأفعال بعقل رجُل حر وبقلب مُحبٍ، فأنا منذ عرفتك أدمنت كل أفعالك.

كانت أمي تنظر لك عندما قلت لها هذا ثم قالت لك:

- أنا لا أملك من الدنيا سواها الآن.

فرددت عليها وقد بدا عليك الغيرة قائلاً:

- ألست أيضا بابنك؟

ابتسمت أمي لك وقالت:

- شرفٌ لي أن تكون ابنًا لي.

ثم استدارت لي وطلبت مني أن أتجه لإعداد شيء نتناوله، فاتجهت

opeikan.com

أنا لإعداد القهوة التي أحببناها جميعًا، كنت أعد القهوة وعقلي يُعيد علي تلك الأحداث السابقة، ويسألني كيف حدث هذا، وكيف تسارعت الأحداث هكذا، وكأن الأمر لدي أشبه بقصص الروايات والأفلام وماذا سيحدث عندما تعلم أمي بأن أمجد يعمل ضابطا.

كان عقلي يُنذرني بنهاية القصة إذا عرفت أمي بأن أمجد يعمل ضابطا، فكيف لابنة قيادي إخواني معتقل وجماعته محظورة أن تتزوج برجل يحمي الوطن لا أدري حينها ما المجهول الذي كان ينتظرني.

عدت بالقهوة فوجدتك أنت وأمي تتحدثان وإلى يومنا هذا لا أعلم فيما كنتما تتحدثان، فقد رحلتما أنتما الاثنين، ولم يبق لي سوى أرواحكما، الآن أدرك أن أروحكما ليس لها لسان يخبرني عما دار بينكما تلك الليلة.

وجدت أمي في تلك الليلة يبدو على ملامحها الارتياح. وعند عودتي بالقهوة وجهت سؤالاً لأمي لأعرف كيف وصل الأمر بينكم، فقلت لها:

- كيف الحال يا أمي؟

فنظرت لي وقالت:

- أنا سعيدة بالتحدث إلى رجل مثل أمجد.

انتابني الارتياح وجلسنا نتناول القهوة جميعًا ثم فوجئت بأمي توجه سؤالاً لك:

obeikan.com

- متى تخرجت من الكلية الحربية يا أمجد؟

انتابني شعورٌ بالدهشة والتوتر قليلا فأجبت أنت على سؤال أمي قائلا:

- تخرجت عام ٢٠١٠.

فأجابت أمي بسرور وقالت:

- عمرك مناسب لعمر حوريه فأنت تكبرها بخمسة أعوام فقط.

شعرت حينها بالغيرة، فأمي عرفت عنك عمرك وسنة تخرجك قبلي، حقا أنا لا أغار من أمي؛ أنا أغار من أسئلة دارت بداخلي وتمنيت معرفتها وعرفتها امرأة أخرى.

لا أعرف ما الذي كان يدور بخاطر أمي ولماذا لم تعترض على كونك ضابطا، في ذلك اليوم تحدثنا كثيرا أنا وأنت وأمي وكان حديثنا أشبه بأحاديثنا أنا وأمي وأبي وأخي قديما. كنا نجتمع هكذا مثلما اجتمعت أنا وأنت وأمي ونتسامر ونتقاسم النظرات والضحكات بين بعضنا البعض.

مُخيفة تلك الحياة، أيامها جميعا متناقضة، أياما تجمعك بمن تحب حتى أنك تظن أن لا وجود لكلمة فراق على وجه الأرض، وأياما أخرى مضادة لتلك تجعلك وحيدا حتى تظن بأنك لن تجتمع بأحبتك لحظة.

مر هذا اليوم ولم أتحدث لأمي إطلاقا، كنت قد ذهبت لغرفتي واشتهيت

obeikan.com

النوم باكرا غير مبالية بأي شيء، وكنت أستعد أنا وأمي للذهاب لأبي في مستشفى السجن.

حالة أبي الصحية بعد وفاة أخي تدهورت كثيرا؛ حتى أنني عند زيارته لم أكن أعرفه من ملامحه المتباعدة، كانت إحدى عينيه تنزف حزنا على أخي في المقابر، والأخرى تنزف قلقًا وحزنًا على فراقي أنا وأمي، كان وجه أبي بمثابة خارطة لطريق القهر والظلم، ولكن إيمانه بقضيته هو ما أودى به لهذا الطريق.

قال لي طبيب المستشفى أثناء زيارتي السابقة لأبي بأنه أصيب بشلل نصفي نتج عن الحزن المفرط بعد وفاة أخي، وعدم سماح السلطات له بحضور جنازة أخي، ولكن الطبيب أكد لي بأن هذا الشلل نفسي وأنه سيأخذ وقتا ويتعافى من هذا الشلل.

حزني على أبي لم يكن حزنا كاملا، فبعد رحيل محمد بات بداخلي إحساس بهروب إيماني بقضية أبي، كنت أؤمن أن أبي له قضية لابد له أن ينصاع وراءها ويدافع عنها باستماتة، ولكن انسياق أخي وراء قضية أبي جعل تلك القضية هي التي أودت بحياته، فلو كان أخي مؤمنا بتلك القضية إيمانا كاملا ومات وهو مدافعا عنها بدون انسياق وراء دفاع أبي عنها، لحزنت حزنا كاملا على حال أبي.

أحيانا أخطاء من نحبهم تجعلنا نرتب أولوية وجودهم بداخلنا، ونرتب

أيضا أولوية حزننا عليهم؛ فأخي أحق بالحزن والشفقة من أبي. أعرف شعور أبي وإحساسه، وأشعر بما يعانيه بعد فراق أخي.

ذات ليلة، كنت أشاهد التلفاز فوجدت جنازة عسكرية لمجندين، كان أبو المجند الشهيد يبكي بكاءً حارًّا، ثم اتجه نحو جثمان ابنه وطلب من الجنود الحاملين للجثمان الكشف عن وجه ابنه لوداعه، فكشف له الجنود الكفن، فقبّل ابنه على جبينه قبلة الوداع، ثم بكى بكاءً حارا عجزت معه نفسي عن استكمال ذلك المشهد المأسوي، وأغلقت التلفاز حاملة بداخلي إحساسًا يصعب وصفه لأبي الذي لم يودع أخي بنظرة وليس بقبلة.

ذلك الأب قدم ابنه فداءً لهذا الوطن، مؤمنا بأن الأرض كالعِرض لابد أن يُحافظ عليها حتى وإن دفع روحه ثمنا لها، ولكن هذا الجندي مات مؤمنا بتلك القضية ليس حبا في إيمان أبيه بها ولكن حبا في إيمان عقله بها.

أما أنت يا أبي قدمت ابنك دفاعا عن قضية لم يكن عقله يحبها يوما، ولكن إيمانه بأنه سيرثك في كل شيء مرورا بأفكارك ومبادئك، إلى أن يرثك ماليا، هكذا تربينا في تلك الدولة على أن يرث الأبناء آباءهم في كل شيء حتى وإن لم يكونوا محبين لأمور التوارث.

توارث في السياسية فنجد أن معظم الأبناء ينساقوا وراء أفكار أهلهم

السياسية، وخير دليل على ذلك الحُكام مثل مبارك وابنه جمال الذي أراد أن يتوارثه في الحكم. وأيضا التوارث في العمل فنجد أن ابن القاضي يصبح قاضيا، وابن الضابط يصبح ضابطا، وهكذا الطبيب والمهندس وغيرها من المهن، وإن ظللت أسرد التوارث في وطني فلن أكف عن ذكر أشياء كثيرة توارثناها ونحن غير مؤمنين بها فقط مؤمنين بفكرة توارثها.

خريطة مصر تحمل أماكن لا روح فيها ولا عدل يُذكر من أقصاها إلى أقصاها؛ تفاوت في كل شيء بدءًا من العادات والتقاليد والفقر وانتهاءً بأماكن تحمل الحرية المفرطة في المال والسلطة والنفوذ.

الأماكن الأولى تمثل تسعة وتسعين بالمائة، والثانية واحدًا بالمائة يتحكمون في زمام الأمور، تماما مثل منزلنا، أبي هو المتحكم وهو المال وهو السلطة ونحن فقط من ننصاع لأوامره وأفكاره وقضاياه ونتبع ما يهواه.

كانت تلك الزيارة لأبي تعطيني بعضًا من الأمل حيال أمرنا، فأمي قد وافقت عليك فبالتأكيد تستطيع أمي أن تقنع أبي بأمرك، ونحن في طريقنا لزيارة أبي هاتفتك أنا لأخبرك بأنني أنا وأمي ذاهبان لأبي في مستشفى السجن لزيارته، وبأن أمي ستخبره بأمر زواجنا.

عند وصولنا للمستشفى كنت أستعد لأرى وجه أبي قبل أن تخبره أمي

بأمر أمجد ويتغير وجهه إما للسعادة أو للغضب؛ عند دخولي لحجرة أبي في المستشفى كان أبي مستلقيا على سريره، وكان يبدو عليه أنه يصلي بعينيه، فإصابته بالشلل تجبره على الصلاة بعينيه.

لحظات بعد دخولنا الحجرة، كان أبي قد أنهى الصلاة، ونظر إلينا أنا وأمي وألقى التحية علينا، فرددنا عليه التحية، ثم استدار نحوي وطلب مني أن أفتح النافذة، فاتجهت لأفتح النافذة كما طلب مني.

ثم نظر لي مطولا وقد بدا عليه الغضب من ملابسي برغم أنني كنت أرتدي ملابس محتشمة ولا أعرف لماذا أظهر كل ذلك الغضب، ثم قال لي:

- ما هذه الملابس التي ترتدينها؟

ثم نظر إلى أمي ونهرها أيضًا لملابسي وقال لها:

- كيف تسمحين لها بالخروج بتلك الملابس؟ من اليوم اشتري لها نقابا.

فنظرت له أمي وصمتت ثم أكمل حديثه لأمي قائلا:

- عند ذهابها للجامعة كوني معها في الذهاب والإياب، ولا تجعلينها تتحدث مع الغرباء، ولا تجعلي صديقاتها يحادثْنها في الهاتف.

ثم استدار برأسه قائلاً لي:

obeikan.com

- هذا آخر عامٍ لكِ في الجامعة، لذا ستُعقد خطبتك الأيام القادمة على أحمد بن القيادي سعد السلامي، وتتزوجان بعد انتهاء هذا العام الدراسي، فوالد أحمد قد طلب يدك قبل وفاة أخيكِ، ثم إنني وجدت الوقت مناسبا الآن لعقد خطوبتكما، فلن أطمئن عليكِ سوى معه، ولن أقبل بغيره زوجا لكِ.

كان أبي يملي علينا ما يريد أن يقوله، وأنا وأمي نستمع له دون أن نتحدث بكلمة واحدة، كنا فقط نستمع لأوامره وتسلطه، فدوما أبي يعاملني هكذا في كل الأزمات التي مررنا بها، وكأنني كرة يتلاعب بها وقتما يشاء. كدت أنفجر به لولا حالته الصحية واحترامي له، ولكنه يرقد مشلولا ولا يبالي لابنته الوحيدة دون أب ولا أخ ولا سند لها، متحملة كل المآسي والخيبات وحدها، بل أضاف لوجيعتي إجبارا على الزواج بمن اختاره هو غير مبالٍ بقلبي ولا عقلي.

خرجنا أنا وأمي من عنده، وخرج من داخلي الأمل الذي كان قد تسلل إلى نفسي وقت الدخول، وتمكن الإحباط من نفسي كاملا. لم تتحدث أمي مطلقا معي طوال الطريق، كدت أنفجر من داخلي وراودتني أحاديث كثيرة وأفكارا كثيرة وحاورني عقلي، ولأول مرة وجدت عقلي يتبع قلبي فيما يهواه وهو أنت يا أمجد، وصلنا للمنزل أنا وأمي ودخلت إلى غرفتي وأبدلت ملابسي وحاولت الخلود للنوم، فوجدت أمي تدخل غرفتي وتنظر لي دون حديث نظرة تحمل شفقه وحزنًا وجلست بجانبي

ثم قالت:

- ما سأخبرك به الآن حملته بداخلي طوال فترة حياتي مع أبيكِ، كنت مُجبرة على أوامره؛ فقد تحكم بحياتي ومستقبلي ومستقبلكم، كنت له الزوجة المطيعة المنصاعة لأفكاره وقضاياه رغما عني، فقد كان عقلي لا يؤمن إطلاقا بأفكاره وقضاياه. تحكم بأخيكِ وبأفكاره؛ وكانت النتيجة أنني فقدته للأبد ولم يبق لي سواكِ، ولن أتحمل فكرة فقدانك أنتي الأخرى، ولن أجعله يتحكم في مستقبلك ويضيعك كما أضاع أخيكِ من قبل، لذا قررت يا ابنتي أن أطاوعك فيما تريدين، وفيما يهواه قلبك، ومهما كلفني الأمر سأجعلك تتزوجين من أمجد.

كنت أستمع لأمي وأنظر لها وكأني أستمع وأنظر لامرأة لم أعهدها قبلاً في قوتها وتغير فكرها فقلت لها:

- أمي أنا أحب أبي أيضًا، ولكني لا أحب فكره وتسلطه ولا أريد أن أتسبب لكِ في الأذى إن أنت تحديتِ أبي في أمري.

كنت أقول لها هذا وأنا أبكي الظلم الواقع علي ووضعي بين سلك شائك آخر وهو أبي وأمي، أمي التي تحررت من قيود أبي، وأبي الذي مازال متمسكا بقضيته، فكيف لي أن أعبر ذلك السلك بينهما لأفوز بقضية عشقي المحظورة معك.

ثم ساد صمت بيني أنا وأمي ووجدتها تقول لي:

- هاتفي أمجد ليحضر الآن.

لم أفكر ولا أعرف ما كان يدور بخاطر أمي حينها، فانتاب قلبي دقات متتالية عندما طلبت مني أمي مهاتفتك؛ فأمسكت بهاتفي واتصلت بك لأخبرك أن أمي تريدك أن تأتي إلينا حالا.

لم يمر حينها سوى أقل من ساعة، وكنت أنت قد حضرت بهيئتك المعتادة على قلبي، وجلست أنا وأنت وأمي معًا ثم أخبرتك أمي ما حدث مع أبي وما أخبرنا به، ثم ساد الصمت بيننا لحظات وقطعت أمي ذلك الصمت قائلة:

- أمجد يا ابني سنعقد عقد قرانك على حورية بيني وبينك وبين خالها ولن يعرف أحد إطلاقا بذلك الأمر ولا حتى والديك، فسعادة ابنتي معك ستكون بالنسبة لي بمثابة تحقيق حلمي من التحرر من قيود والداها الذي زج بي طيلة حياتي للعبودية في الأوامر والتفكير.

حينها صُعقت لكلام أمي فلا أعرف ما كان ينتاب أمي حينها، ولكن ما أعرفه أن أمي سلكت الطريق الصحيح للتحرر من الفكر بعد هذا العمر. فأحيانا نعيش طيلة حياتنا متبعين قضايا لا تشبهنا وأفكارًا لا يقتنع عقلنا بها، ونصل عند مرحلة معينه من عمرنا ونقول لأنفسنا، كفى عبودية لأفكارٌ وقضايا الغير، سنخلق لأنفسنا قضية تشبهنا وأفكارًا يؤمن عقلنا بها، تمامًا مثلما فعلت أمي؛ عاشت عمرها تؤمن

بما لا يشبهها، وعندما قررت التغيير أمنت بقضية حبي لك.

لن أطول في سرد ما حدث حينها لأنني متيقنة أنك تحفظ تلك الذكريات عن ظهر قلب، في ذلك اليوم ذهبنا أنا وأنت وأمي لمنزل خالي عماد، فخالي عماد الذي تمنيت طيلة حياتي أن يكون هو أبي وأحمل اسمه هو. فحقيقةً كان بالنسبة لي الأب الحقيقي الذي أحمل له إحساسا وحبا وإيمانا بفكره وليس أبي الذي أحمل اسمه فقط، ولا أحمل له روحا ولا إحساسا يذكر بسبب تسلطه، فكانت تمر الأحداث متسارعةً في لحظاتنا تلك.

وما أسعدني حينها أن خالي طيب القلب هادئ الطباع صاحب العقل الأكبر والحكمة الأكبر قد وافق على ما عرضته أمي عليه من أن يكون واليا لي في عقد قراني.

خالي عماد يعمل مُدرسا للثانوي، ويربي أجيالا أخلاقيا قبل علميا، دينيا وفقهيا لا أجد أحدا من أقاربي أو معارفنا ينافسه في تدينه وأخلاقه. فخالي كان مواظبا على صلاته وعلى كل فرائض الدين، كان محافظا على خَلق مسافة من الحرية بينه وبين ابنته "هايدي" فقد زوَّجها لمن تريد وأيضًا لم يتحكم في مستقبلها العملي وترك لها الفرصة في اختيار طموحها في الكلية التي تريد اللحاق بها.

دائمًا ما أحببت الرجال الأحرار في فكرهم عندما يمنحون زوجاتهم أو

أبناءهم الحرية في فكرهم ولهذا أحببت خالي.

طلب خالي من أمي أن نسرع في إجراءات عقد القران الذي ذهبنا إليه فيه، واتفقنا جميعا على إخفاء الأمر عن أي شخص حتى عن زوجة خالي وابنته "هايدي" وأردنا ذلك حفاظا على أمي وأنا وأنت يا أمجد من أن يصيبنا الأذى من عمي إذا علم بما فعلناه، كنا نفعل شيئا حلله الله لنا ولكن حرمه المجتمع وهو أن تتزوج فتاة بدون علم أبيها وبدون رضاه.

أحيانا يُحرم المجتمع أشياءً قد حللها الشرع لنا وأجبرنا على الانصياع وراء الخوف من أحاديث الناس، وغالبا الناس لا تكف عن الكلام، فإن كنت سيئًا أساءوا إليك أكثر، وإن كنت مُحسنا تحدثوا عنك سوءًا وافتراءًا، في ذلك اليوم كنت في قمة السعادة وقد طلبت من خالي وأمي أن نعقد قراني في المقابر عند عم حسان وصديقتي سارة، أردت من يشاركونني إيمانا بقضيتي أن يشاركونني أيضا فرحتي.

ذهبنا جميعا أنا وأنت وأمي وخالي وصديق خالي، وعند وصولنا وجدت صديقتي سارة والتي لم ألقَها منذ شهرين قد تبدل حالها وأصابها الهزل ولكن وجهها كان يشع إيمانا وقد كنت في كل تلك الفترة السابقة أطمئن عليها في الهاتف فقط ولم أرَها منذ ذلك اليوم الذي تركتها في المقابر وحدها تواجه إيمانها بقضيتها الدينية.

كانت رؤيتي لسارة لها حضور قوي على قلبي؛ أضافت لقلبي سعادة أخرى وخاصة أنها أصبحت في أمانٍ داخل تلك المقابر ولم يكتشف أحد مكانها لحين انتهاء عمرو من دراسته هذا العام، كان حضن سارة لي بمثابة حضن لم أعهد به من قبل وكأنني لم أرها منذ سنين وليس شهورا قليلة.

جلسنا جميعا وضحكنا وتحدثنا وأحضرت ابنة عم حسان لنا أكوابا من الشاي لنتناولها ثم أثناء تناولنا للشاي، أخبر خالي عماد عم حسان بما نريد أن نفعله في هذا اليوم من عقد قرانا عنده ففرح عم حسان بما أخبره به خالي وطلب من حفيده الذهاب لشراء مشروب الشربات لنا جميعا فرحا بهذا الخبر السعيد وبرغم حب عم حسان لأبي إلا أنه فرح لي وبأنني سأكون سعيدة ووعدنا بأن الأمر سيكون سرا بيننا.

أحضرت ابنة عم حسان مشروب الشربات الأحمر، فهذه عادتنا نحن المصريين في الفرح نشرب مشروب الشربات وفي الحزن نشرب القهوة. حتى المأكولات والمشروبات أصبحت ورثا في مجتمعنا ولا شيء من تلك العادات يتغير عبر عقود طويلة.

مرت ساعات قليلة، وفي تلك الساعات، كان قد حضر المأذون الذي اتصل به خالي لإحضاره لإتمام عقد القران وحضر أيضا عمرو حبيب سارة، عقد المأذون القران بشهادة عم حسان وصديق خالي وكان

خالي الوالي بعد أن أخبر خالي والجميع المأذون بأن أبي معتقلٌ وهو يبارك ذلك الزواج فاقتنع المأذون بالأمر وأتم إجراءات عقد القران.

ثم ما إن أتم إجراءات العقد وأعلن إتمام الزواج بيني وبينك، اتجهت أمي نحونا معا وإحتضنتنا معا وبدء الجميع في تهنئتنا. مضى وقت قليل كنا فيه جميعا سعداء ثم فجاءه أمسكت بيدي وقلت للجميع مسرورا – هل أستطيع أن أسرق عروسي منكم الآن وأذهب إلى عُشنا.

فابتسم الجميع ثم اتجهت أمي نحوك ممسكة بمنكبيك وقالت لك:

– أمجد حورية ابنتي أمانه لديك حافظ عليها واجعلها أميرة في بيتك ولا تجعلنا أنا وهي نندم لحظة على ما أقدمنا عليه من أجلك.

أمسكت أنت بيد أمي وقبلتها وقلت لها:

– أمي ، سأجعلها تسعد بكل لحظة معي وتتمني لو أن عادت طفلة لتمكث معي طيلة حياتها منذ طفولتها وحتى شيخوختها ولن يفرقني عنها سوى موتي.

ثم أمسكت بيدي وقلت لهم دعونا لا نتأخر عن عش الزوجية الذي ينتظرنا وانطلقنا مسرعين أنا وأنت. وتوجهنا نحو السيارة وكعادتك فتحت لي باب السيارة ولكن هذه المرة وأنا زوجتك وقلت لي:

– اصعدي إلى السيارة أميرتي وزوجتي للأبد.

اتجهنا إلـى فيلاتك الجميلة التي أحببت ذوقـك فيها واختيارك لديكورها وأثاثها وعند دخولي هذه المرة فيها أحسست بأنها جنتي الجديدة، وصعدنا إلى غرفتنا سويا وحينها لم يكن معي ملابس للنوم أستبدلها بتلك الملابس التي كنت أرتديها، ولم أستطع إحضار ملابسي من المنزل لسرعة الأحداث التي لم تمهلنِ أن أرتب أشيائي وأيضا لم تمهلنِ أن أرتب نفسي استعدادا للمكوث لدى رجل لأعيش معه وحدي.

كنا أنا وأنت وحدنا في الغرفة، كنت أشعر حينها بالارتباك قليلا ثم وجدتك تمسك بيدي وتقبلها وتجذبني نحو حضنك وقلت لي:

– أعرف بأنك تخافين قليلا من فكرة وجودك بغرفة رجل حتى وإن كنتِ زوجته، أليس كذلك؟

ابتسمت مُجيبة:

– أنا لم أخف منك يوما، من الممكن أن أخاف وجود الأماكن لكن لا أخاف وجودك.

فابتسمت لي ثم توجهت لدولاب ملابسك وأحضرت ثياب نومك وواحدا لي وقلت لي:

– ارتدي ملابسي لتنامي بها كما ترتدين حبي بداخلك.

دائما ما كانت كلماتك تثير عاطفتي وروحي وتجبرني على أن أجعل

ذلك الحب يزداد حتى أنني في هذه اللحظة التي أكتب لك فيها زاد حبك بداخلي وفاض وملأ تلك الزنزانة التي أقبع بها وإن كنت محقة فقد اتسع ليشمل كل هذا السجن، وإن كنت لا أبالغ فقد اتسع أكثر وأكثر ليشمل هذا الوطن الذي سرقك مني.

ارتديت حينها ملابسك وارتدتني روحك ورائحتك التي لم تغب عن حاسة شمي حتى اليوم، أستنشقها بدلا من هواء تلك الزنزانة، رائحتك هي هوائي وأكسجيني الذي أعيش به. ثم ما إن أبدلت ملابسي وجدتك تعود للغرفة مُحضرا معك بعض الطعام وجلست بجانبي على سرير عشقنا وبدأت في إطعامي بيدك وكأنني طفلة صغيرة لم تتعلم بعد إطعام نفسها، وظللنا نتحدث في أحاديثٍ كثيرة كشفت لي يومها عن عقل رجل ناضج ومثقف لم أعهد بمثله من قبل، وأيضا كشفت لي عن رجل رومانسي في نظراته حتى أثناء حديثه أحاديث جادة وهامة، كنت أثناء حديثنا سويا تقطع الحديث ممسكا بيدي وتقبلها وتعود بنا لاستكمال حديثنا وكأنك لم تفعل أي شيء.

كانت أحاديثنا غريبة عن الحب ولكن عيناك كانت تتحدث حبًّا ولمساتك تشع عشقًا، ثم ونحن نتحدث، حدثتني أنوثتي وقلت لك:

- أمجد أريد أن أذهب لمركز التجميل غدا وأريد شراء بعض ملابس النوم.

obeikan.com

فابتسمت وقلت لي:

- أنتي لا تحتاجين إلى التزين، أنتي زينك الله وجعلك أجمل النساء في عيني.

ابتسمت لك وحدثتك بلغة أنوثتي قائلة:

- سأضيف لجمالي جمالاً يثير رجولتك.

فوجدتك تقترب مني أكثر وتقول لي:

- أنتي تثيرين عاطفتي ورجولتي وكياني كله.

وحاولت جذبي نحوك لتقبلني ولكنني حاولت منعك وإبعادك عني قليلا، فوجدتك مُصرًا على تقبيلي مما جعلني أنساق وراء رغبتك العارمة في ورغبتي العارمة فيك، ولم أشعر بنفسي إلا بعدما أنهيت تلك القبلة وقد التهمت فيها شفتاي مُحدثا بداخلي زلزال الرغبة، ساد حينها صمت قليل بينا وطلبت منك أن تتركني أخلد للنوم، فقلت لي:

- سنخلد للنوم سويا، فلن يزورك النوم اليوم بدوني.

في تلك الليلة زارني بالفعل النوم بين أحضانك وكانت زيارته لها حضور قوي على نفسي، فقد نام عقلي قبل جسدي المنهك، عقلي الذي لم ينم كل تلك الفترة السابقة لتلك الليلة، نام فقط لأنه ينام بجوار عقلك الذي طمأنه ومنحه الأمان. ثم جاء علينا الصباح في

obeikan.com

اليوم التالي وكان صباحا لم أعهد به من قبل؛ فتحت عيناي فوجدت الشمس بنورها ترقد بجانبي، كنت تشبه الشمس في جمالها ونورها القوي وحرارتها الدافئة التي تعطيني إحساسا بالأمان والقوة، تماما كما أعطيتني تلك الأحاسيس، كان ما حدث في ذلك الصباح غريبا على جسدي ولكنه جميلا على نفسي، فعند استيقاظك وجدتك تلتهم جسدي كما التهمت روحي، كان التهامك لي فيه كثير من الحنان وقليل من القوة في لمساتك لي وبرغم وجود القوة إلا أنني لم أشعر سوى بحنانك ودقات قلبك المُتسارعة. كان المكان يشع هدوءًا حولنا وقلبي وقلبك يُحدثان ضجة كبيرة بنبضاتهما.

ظل جسدي يتعود جسدك طيلة أسبوع، بل بالأحرى إن جسدي أصبح هو جسدك، نسيت في تلك الأيام كل شيء عما مررت به في حياتي من الألم والأحزان، كان حنانك المفرط هو الذي أخرجني من عالمي السابق وأدخلني معك عالمًا جديدا لم أعهد به من قبل.

كانت أحاديثي معك في تلك الأيام هي كل الأحاديث الهامة والجذابة التي تحدثت بها في حياتي والتي لم أتحدث مثلها إلى يومي هذا.

حتى أن السجينات معي في المعتقل تعودن على التحدث كثيرا من فرط الملل الذي يصيبهن، ولكن أصابني أنا الصمت، فبعدك يا أمجد لا أحاديث تهمني، ولا الكلام يريد الخروج من داخلي، لا أحد سواك.

مرت تلك الأيام وكأنها لحظات في حياتي ولكنني احتسبتها عمرًا كاملاً لي، فهذه اللحظات بمثابة حياتي كلها، أحيانا نعيش بعض الأيام السعيدة وتمنح أنفسنا الأمل وتضيف على أعمارنا عمرًا جديدًا، وأحيانا أخرى نعيش أيام حزن وألم تُنقص من أعمارنا وتسرق منا باقي حياتنا.

كنت أظن وأنا معك في تلك الأيام بأنها لن تتغير أبدا من فرط سعادتي ونسياني للماضي. وخلال تلك الأيام القليلة كانت تحدثني أمي ولكنها كانت قلقة بعض الشيء من أن يزورنا عمي أمين ويعلم بعدم وجودي فيحاول إيذاءنا جميعا بدءًا من أمي وأنا حتى أمجد، إذا علم بأمر زواجنا دون علم أبي.

كنت في ذلك اليوم أهاتف أمي كعادتي كل يوم للاطمئنان عليها ولكنها لم تجب على الهاتف حتى ساعة متأخرة من الليل فأصابني القلق عليها وطلبت منك يا أمجد أن نذهب سويا لمنزل،ي ونعرف لماذا لا ترد أمي على الهاتف ولكنك رفضت خوفا علي وأيضا حتى لا يعلم أحد بأمر زواجنا وقلت لي بأنك ستذهب وحدك وتحاول الاطمئنان دون أن يلاحظ أحد، ذهبت يا أمجد ذلك اليوم وعدت لي بفاجعة قلبي الكبرى، عدت حاملا خبر مقتل أمي الحبيبة، هل تعلم يا فقيدي أنني وإن سردت أحاسيسي في ذلك اليوم عندما أصابتني فاجعة فقدان أمي لن أسردها حق السرد، فقد تعلم روحك ما عانيت تلك الليلة والليالي

التالية لها حتى أنني كدت أن أجن لولا وجودك بجانبي هو الذي هَوّن علي ذلك الفراق.

ما أوجعني أنني حتى لم أشارك في جنازة أمي ولم أودعها الوداع الأخير، كنت أود احتضانها قبل أن تذهب بعيدا تاركة ابنتها الوحيدة تتألم، عدم ذهابي لجنازة أمي كان أمرا مُجبرة عليه حفاظا عليك قبل حفاظي على نفسي، فقد انصعت لطلبك بأن أمكث في المنزل، وألا أذهب للجنازة لأنني إن ذهبت سينكشف أمرنا وإن أكتشف أمرنا، سأضيعك قبل أن أضيع نفسي.

كنت حينها أطلب منك متابعة سير التحقيقات في القضية خوفا من أن يتهمونني أنا بقتل أمي ويضيع حقها، فأنا أشك بمن قتل أمي بل أكاد أجزم بأنه القاتل.

فقداني لأمي كان له أكبر أثر مُفجع على نفسي، أكثر حتى من فقداني لأخي، ها هي أمي التي كانت تخاف أن تفقدني، هي من ذهبت أولا بعيدا عني.

أنت حينها أغلقت على قلبي بحنانك خوفا أن يُنتزع قلبي من داخلي لفرط اليأس والحزن والجزع الذي تملكني ولولاك هلكت.

تلك الأيام كنت خائفا على عيناي أن تصاب بالعمى من كثرة بكائي، فكنت تحتضن عيني بنظراتك مُحدثا ارتباكا بداخلي يجبرني عن

obeikan.com

التوقف عن تلك السيول من الدموع واستكمال النظر لينابيع حنان عيناك.

إن أجمل ما في الحياة، رجلٌ يشارك الأنثى حزنها قبل سعادتها وها أنا أقر يا فقيد قلبي بأنك أجمل الرجال وأنبلهم خُلقا.

ظلت التحقيقات مُستمرة في قضية مقتل أمي وظل البحث عني ساريا فظهوري سيحل ذلك اللغز، إن أخبرتهم بالحقيقة ولكنه سيضر بك يا أمجد قبل أن يضرني.

كنت أعلم أن عمي أمين ذلك الرجل المتسلط مثل أبي، المتعجرف، الحامل لعادات الصعيد من قضايا الثأر والقتل والشرف وقضاياه الفكرية المتعصبة ونفوذه وماله، حتى أنني في بعض الأحيان عندما كنت أراه، كنت لا أشعر بوجوده حتى لا أسبب لنفسي الانزعاج بوجود هذا الشخص سيئ الطباع والتفكير وأيضا الأخلاق. فهو ظاهريا مُدعي للدين وداخليا لا يعرف الله ولا يطبق شرعه. فأنا دوما لم أحكم على أي شخص بخارجه، كنت أحب التعمق بدواخل الناس كما تعمقت بك يا أمجد ووجدت بداخلك لا يختلف عن جمال خارجك.

لا أعلم ما الذي دار تلك الليلة بين عمي وأمي وما الذي دفعه إلى قتلها ولكنني كنت على يقين بأنه القاتل، وكانت أمي تشعر بأنه سيؤذيها قبل وفاتها فكانت تشعر بالقلق وتخبرني في كل مكالمة بأنها خائفة من

زيارته لنا، أو أن أبي من الممكن أن يرسله ليتفقد أحوالنا، فبالتأكيد قد زارها ذلك اليوم ولم يجدنِ، فاضطرت أمي لقول الحقيقة، محاولةً التجرؤ لأول مرة على هؤلاء المُتسلطين لكن كان هذا مصيرها القتل.

لم تمر أياما كثيرة وفوجئت بك يا أمجد ذات ليلة تطلب مني الصمود وتقول لي بأننا سنغادر إلى سيناء الليلة، لأنه حدث أمر خطير، فسألتك عما حدث فأخبرتني بإحدى أهم الفواجع في تاريخ قلبي، وقلت لي بأنهم وجدوا خالي عماد مقتولا في الطريق الصحراوي.

هذه الظروف التي مررت بها معك كانت أشبه بأن أحد الأشباح مُمسكا بي ونازعا قلبي من صدري، ممزقا إياه إربا. طلبت مني يومها أن أجهز أمتعتنا وأن أمرنا قد انكشف، وأن شكوكي في محلها وهذا المجنون العنيف عمي هو الفاعل. هذا المجنون مُدّعي التدين بالتأكيد فعل ذلك لأن أمي وخالي زوَّجاني منك يا أمجد بغير معرفة أبي، فذلك بالنسبة له بمثابة الزنا، وليس زواجًا. يحرمون ما يحلله الله؛ فهؤلاء هما مُدّعي التدين.

في تلك الليلة طلبت مني الانتظار إلى الصباح الباكر والتحرك بسيارتك في اتجاهنا لسيناء، أرض الطهارة، وفي الليل مكثتُ أنا في أحضانك باكية أخًا وأمًّا وخالاً، باكية كل أحبائي ولم يتبق لي سواك، أما أبي فلم يعد أبي ولم أعد أتمني وجوده، فقد انتزع مني كل أحبائي،

انتزع أخي بسبب قضيته الفاسدة، وانتزع أمي بسبب إيمانها بقضيتي وانتزع خالي لهذا الأمر أيضا. فأنا لم يعد لي أبٌ، أنا حينها كنت أمتلكك أنت يا أمجد، الأب والابن والأخ والسند وكل شيء. لقد منحت روحي الصمود في وقت لم أكن قادرة فيه على استكمال حياتي ومنحت قلبي الثبات في وقت كاد أن يتمزق فيه من الفواجع.

ثم في الصباح جهزنا ما نحتاجه واتجهنا في طريقنا إلى سيناء، كان قلبي يتجه منتظرا فاجعة جديدة ولكنني حينها كنت لا أدري ما هي. كنت طوال الطريق تنظر لي ثم تمسك بيدي وتنظر لي وتطمئني وكان الطريق طويلا جدا ولكن وجودك أشعرني بقصر المسافة، ثم وصلنا إلى سيناء أرض الطهارة، الأرض التي تجلى فيها الرحمن، فكيف لقلبي أن لا يشعر برائحة الحرية بها وبصوت الصمود فيها وكيف لا ترى عيني المناظر الخلابة، فقد أفقدها بريقها هؤلاء الإرهابيون المندسون بها، المتربصين لأبناء هذا الوطن مثلك يا أمجد ومثل زملاءك الذين سبقوك في الرحيل والذين سيعقبونك في الرحيل، تدفعون أرواحكم ثمنًا لأرضٍ لا تضيفكم سوى أرقاما في قائمة تضحيتها فقط.

اتجهت بنا نحو منزل صغير يبدو عليه أنه لأحد من بدو سيناء ولا أعرف متى استأجرته، وعند دخولنا كنت منهكة من السفر وأردت النوم، فجلست بجانبي على سريرٍ صغير ووضعت قبلة على جبيني وقلت لي بأنك ستذهب لعملك في الكمين – كمين قبر عُمير – وستعود

ليلا ولن تتأخر عني، نظرت لك وأنا أخلد للنوم وقلت لك:

- سأشتاق لك.

خلدتُ للنوم طويلا وجاء الصباح علي وأنا أيضا نائمة ثم في الساعات الأولى من الصباح، استيقظ قلبي مُنتفضا فنهضت جالسة في السرير وقد أصابني الفزع ثم لم أجدك بجانبي، فأصابني القلق، فأمسكت هاتفي لأتصل بك ولكني وجدت هاتفك مُغلقا، فنهضت عن السرير أنظر من نافذة المنزل ولكنني لم أجد أي شيء حولي؛ لا أناس ولا منازل ولا أي شيء، فاتجهت وأشعلت التلفاز وفجأة وأنا أتابع بعض القنوات قرأت خبر تفجير كمين قبر عُمير بسيارةٍ مفخخة واستشهاد مُجندين وضابطا وكان اسمك مذكورا بين الشهداء - أمجد عبد الحميد.

خبر رحيلك أخذ بقلبي معك حيث تقبع، فأنا الآن دون قلب ينبض، أنت كنت النبض والحياة. لو كنت أعرف أنني لن أراك مرة أخرى في تلك الليلة التي قبلت جبيني فيها وذهبت، لكنت اختطفتك بين أحضاني وجعلتك سجينا بين ضلوعي، فقداني لك يا أمجد هو نهاية الحياة، فبعدك انتهى الوقت وتوقف الزمن. كنت أدرك أن قاتلك هو من قتل أمي وقتل خالي وقتل تلك القصة التي نشأت بيننا بشرع الله وليست محرمة، كنت أعلم أن القاتل هو عمي، لذا أمسكت بهاتفي وأنا

متماسكة ولم أبكِ؛ اتصلت برقم عمي الذي احتفظت به دوما ولم أحاول الاتصال به لحظة واحدة فرد علي بصوته البغيض المعهود وقال لي:

– كنت أعرف بأنك ستتصلين بي أيتها الزانية بعد مقتل هذا الحقير. اشتعل بداخلي الكره والانتقام بذكرك يا طيب الأثر بالسوء، فقلت له:

– أنا بمنزل صغير في الشيخ زويد بجانب الكمين الذي فجرته، وحاولت وصف المكان له، وما هي إلا دقائق ووجدته هو وبعض الإرهابيين سيئي الشكل والطباع، لا أعلم كيف كنت أنتوي قتل عمي ولكنني كان بداخلي انتقاما كفيلا بأنه سيجعلني أمحوه من على وجه الأرض.

جاء هذا الظالم ودخل للمنزل وعند دخوله توجه نحوي وصفعني على وجهي موجها لي وابلا من الشتائم والسباب ومتهما إياي بالزنا قائلا:

– كيف لك أن تسمحي لنفسك أيتها العاهرة أن تتزوجي بدون موافقة أبيك؟!

تعلم يا أمجد موتك منحني قوة لمواجهة عمي تلك الليلة، والتجرؤ على قول كلام كنت لا أجرؤ إطلاقا على قوله، فقلت له:

– أنا أقدمت على زواجي منه مثلما حلل الشرع، ولن أفعل ما يُغضب الله، وإن كان زواجي منه باطلاً فأنا لن أندم على إهداء شرفي له ، فأنا منحته شرفي غير مُبالية بوجود أبي ولا بوجودك.

ثم ما إن أكملت جملتي تلك أمسك بي وظل يضربني قائلا:

- لولا أن أبيكِ طلب مني عدم قتلك لكنت أنهيت حياتك الآن .

مر نصف ساعة وكان يهم عمي ومن معهم بالرحيل وبالطبع سيأخذونني معهم، كان أحدهم يطلب من عمي ونحن نهم بالرحيل مُعاقبتي بالعقاب الشرعي وهو الجلد ثمانين جلدة لأنني زانية فوافق عمي قائلا له:

- لابد أن نطهرها من الذنب الذي ارتكبته مع هذا الكافر.

مريبة تلك العقول بالنسبة لي، لا أعلم كيف يفكر هؤلاء، وإن كنت أشفق عليهم في بعض الأحيان، وأقول بأنهم مرضى عقليين. ولا حرج على المريض العقلي أو النفسي حتى.

وفجأة عند خروجنا وجدت وابلاً من الرصاص موجها نحو المنزل وأخرج هؤلاء الإرهابيون رشاشات كانت بحوزتهم ووجهوا ضرباتٍ نحو الخارج، كانت تلك الرصاصات القادمة من الخارج من قوات الجيش المصري، ويبدو أنهم اشتبهوا في وجود إرهابيين في المنزل بعد ضرب الكمين، ظل الضرب مستمرا لمدة ربع الساعة، ثم بعدها اقتحمت القوات المنزل وكان عمي قد لقي حتفه هو واثنان ممن كانوا معه ولم يتبق سوى أنا واثنان آخران وتم القبض علينا.

رحلة اقتيادي من سيناء للقاهرة، ومن ثم التحقيق معي واتهامي بأنني

إرهابية وتواطأت مع هؤلاء على ضرب ذلك الكمين، لم أذكر مُطلقا للسلطات فيها أنني مُتزوجة منك بل حتى أنني أعرفك. فلن أجعلهم يقولون عنك إنك تزوجت من إرهابية وينتزعون منك شرف الشهادة.

لن أجعل ذلك الوطن الذي ارتوى بدمائك الطاهرة يُشكك لحظة في وطنيتك، لن أجعلهم يتحدثون عنك إلا بالشهيد البطل، فأنت سرًّا بطلاً لحياتي وعلنًا بطلاً لوطنهم، فهذا الوطن ليس وطني، هذا الوطن الذي سرقك مني، أما وطني فهو أنت، فحضنك كان أرضي وحنانك سمائي فلا وجود للحرية إلا معك، أمجد، أنت موطني.

لا يوجد وطن يضع سلكًا شائكًا بين أبناءه؛ فهذا الوطن وضع سلكًا شائكًا بيني وبينك؛ فأنت ضابط الحدود علنا وأنا ابنة الإرهاب، ابنة الجماعة المحظورة حتى ولو لم أكن أؤمن بفكرها. فكيف لهذا الحب بين أسوأ الأعداء حظا أن ينشأ. فلا أحد سيؤمن بتلك القضية سوانا.

أمجد أنا لا أعير وجودي في هذا المكان اهتمامًا ، فهو ليس سجنا سيئًا بالنسبة لي. فالسجن الأكبر بالنسبة لي وهو رحيلك، فأنا أمكث بداخل زنزانة الفراق. ولكن تسلل لنفسي الأمل لمُلاقاتك، فمنذ شهر وأنا أعاني دورا ويُغشي علي بدون سبب في ذلك السجن وطبيب السجن فحصني، فوجد كتلة في رقبتي، فطلب إجراء بعض الإشاعات والتحاليل. وأحمد الله، فقد تأكد لي أمس أنني مُصابة بسرطان الغدد الليمفاوية في مرحلته الأخيرة، فلذلك قررت كتابة تلك المُذكرات لك

لأوثقها لعقلي وروحك ولن يقرأها سوانا.

أمجد إن روحك هي وحدها التي ستقرأ تلك الملحمة الرومانسية القوية، تلك حكايتنا في أصعب فترات التاريخ السياسية؛ فترة تاريخية وضعت بين أبناء الوطن الواحد سلكًا شائكًا، انقسمنا نصفين وبيننا حد فاصل لا يجب أن يتعدى أحد الجانب الآخر للثاني. وإن تعداه، سيصبح مصيره مثلنا.

قضية الحب هي القضية الوحيدة التي آمنت بها في حياتي، وغير نادمة على إيماني بها، وغير مبالية بما زجَّت بي إليه الآن، أما قضيتك يا فقيدي كانت الوطن رحلت مدافعًا عنه وواهبًا له روحك.

فأنا وأنت نتشابه في إيماننا بالحب، أنت أحببتني أنا والوطن ولكنك أهديت الوطن روحك، أما أنا فأحببتك وحدك وأهديتك شرفي إن كان زواجنا باطلاً، فحبي لك لا يقل عن حبك لهذا الوطن الذي أهديته روحك.

أمجد تلك آخر سطور أسردها لك في حكايتنا، وأخبرك يا فقيدي بأنني سأزورك قريبًا، فقط أطلب من روحك أن تنتظر قدومي، فغدا أنا ذاهبة لإجراء عملية جراحية لاستئصال هذا الورم ونسبة نجاح العملية قليلة؛ خاصة وأن العملية سُتجرى في مستشفى القصر العيني، الذي يفتقر لأقل الإمكانيات الطبية، فكيف لهم أن يجروا عملية بتلك

الصعوبة، أشعر بالسعادة لقرب لقاءك أنت وأمي وأخي وخالي وكل من أحببتهم ورحلوا. أنا الآن مُحاربة مثلما أنت محارب للوطن، فأنت ذهبت ولم تُكمل انتصارا على أعدائك. وأنا الآن مُحاربة لمرض السرطان

وبالتأكيد سينتصر علي هذا اللعين، ويقضي علي كما قضى الأعداء عليك. فرحيلنا سيكون متشابهًا. أمجد ما أريده حقا هو الخروج من هذا المكان ووضع تلك الأوراق على قبرك حتى تستطيع روحك قراءتها جيدا، حيث تقبع في مقبرتك، ولأخلد ذكرياتنا لتاريخنا الذي صنعته لنا سويا.

*****

obeikan.com

كنت أقف وأقرأ تلك المذكرات أمام قبر أمجد وأنا أبكي بكاءً حارًّا على هذين الحبيبين - أمجد وحوريه -، ثم ما انتهيت من قراءتها، أردت إخبار أمجد في قبره بأنني، إيمان، صحفية كنت معتقلة مع تلك الفتاة الحرة التي توفت نتيجة عملية استئصال هذا الورم، ورحلت دون أن يعلم أحد بقصتها، متهمين إياها بخيانة الوطن وبقتلك، ولا أحد يعلم بأنك حبيبها وزوجها، ولولا أنني وجدت تلك الأوراق في أمتعتها، ما كان أحدٌ سيعلم للأبد بقصتكما معًا.

ثم وضعت تلك الأوراق على قبر أمجد تمامًا مثلما تمنت حورية واتجهت ومعي نسخة من تلك المذكرات، سأعيد نشرها في الجريدة التي أعمل بها ومهما كلفني الأمر، ستصل تلك المذكرات للناس جميعا ليعلموا، ماذا صنع الوطن بأبنائه، وجعل من الحب أمرًا مُخالفًا للدستور والقانون وصنع بين الأحبة "سلك شائك".

تمت بحمد الله

opelkan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com